الباب الرابع

الإمارات الإسلامية في شرق أفريقية

الفصل الأول

الإمارات الإسلامية الشمالية
إمارات الحبشة

لقد كانت الهجرات العربية الإسلامية المتواصلة إلى ساحل البحر الأحمر المجاورة وساحل شرق افريقيا من الأسباب القوية، لظهور سلطنات وامارات إسلامية، لعبت دوراً كبيراً ومؤثرا، بل فعالاً فى مجرى الأحداث السياسية والتاريخية والحضارية والاجتماعية فى تلك المنطقة ، بل إنها تركت بصماتها الواضحة الجلية فى كل مظهر من هذه المظاهر، ومن هنا كان لابد من الإشارة إلى تلك الدويلات الإسلامية أو الإمارات، بدءاً من المناطق الشمالية حيث ساحل البحر الأحمر، وما ظهر من ولايات عربية إسلامية، ثم الانحدار جنوبا فى اتجاه ساحل المحيط الهندى الغربى (شرق افريقية)، وصولا إلى أقصى المناطق الجنوبية التى وصل إليها المد الإسلامى، ومن ثم ظهرت ولايات عربية إسلامية .

ونقول إن العرب كانوا أول من توغل فى هضاب الحبشة لمسافات بعيدة، بعد أن استقروا على الشاطىء، واتخذوا لهم مراكز تجارية على الشاطىء، ومن ثم اتخذوا مجارى بعض الأنهار كوسيلة أساسية للوصول إلى المناطق الداخلية؛ حيث أن تلك المراكز التجارية أصبحت المنطلق، الذى تنطلق منه الجماعات الإسلامية للتوغل كثيراً داخل الهضبة الأثيوبية ، ومن هنا فإنه عندما اشتدت الهجرات العربية على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية، بدأت تظهر إمارات ساحلية إسلامية، ولم يأت القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى، إلا وكانت تلك المناطق قد شهدت قيام تلك الإمارات، والقيام بدورها الأساسى فى نشر الإسلام، وبناء تلك الإمارات العربية الإسلامية، وممارسة دورها فى تلك المناطق .

ولقد كان أول تلك المراكز الإسلامية، هى مملكة (شوا) الإسلامية، التى قامت فى وسط الحبشة فى بقعة من أخصب بقاعها؛ حيث كان الإسلام قد تطرق إلى شرق تلك المنطقة، وقامت تلك السلطنة الإسلامية التى عملت على توطيد العقيدة الإسلامية فى جنوب شرق الحبشة ، ومن المرجح أن هذه السلطنة الإسلامية قد ظهرت إلى الوجود السياسى، فى نهاية القرن الثالث الهجرى (٢٨٣هـ ونهاية القرن التاسع الميلادى

(٨٩٦م)؛ حيث ظهرت تلك الولاية بجهود قبيلة عربية قريشية، تنسب إلى بنى مخزوم، إذ لقب حاكمها باسم المخزومى ، حيث إن بعضاً من أفراد تلك القبيلة العربية القريشية قد عرفوا طريقهم إلى الحبشة منذ عهود سابقة ، ذلك أن عصر الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب، قد شهد هجرة أول عربى مسلم استقر بالحبشة، هو ودينه، هشام المخزومى نسبة إلى تلك القبيلة ، والذى لا شك فيه أن بعضاً أو جمعاً كبيراً من قبيلته قد هاجروا بعد ذلك، واتصلوا به، ومن هنا كان ظهور تلك السلطنة باعتبارها أولى السلطنات الإسلامية فى أرض الحبشة ، وعلى هذا يكون بنو مخزوم هؤلاء مهاجرين عرب، استطاعوا أن ينفذوا إلى تلك الجهات فى وقت مبكر، وليس بعيد أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر فى ضيافة إمارة محلية من إمارات الحبشة، ثم اختلطوا بأمراء تلك الامارة عن طريق المصاهرة والزواج، ومن ثم آل إليهم فى آخر الأمر مسئولية تولى السلطة فى تلك الامارة .

وقد استمرت تلك الولاية العربية الإسلامية تحكم تلك الأنحاء فى جنوب شرق الحبشة، حوالى أربعة قرون متواصلة؛ حيث كانت المراحل الأخيرة من مراحل اضمحلال هذه الإمارة حينما فرقها الفتن والصراع بين الإمارات الإسلامية؛ حيث انتهى سطان تلك الولاية فى عام ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م، بعد أن قام حكام سلطنة «أوقات» الإسلامية بمهاجمة سلطنة شوة وإسقاط حكم بنى مخزوم من مسرح الأحداث السياسية فى الحبشة، بعد أن نشروا الإسلام، وأقاموا قواعد الشريعة الإسلامية طوال أربعة قرون .

وقد سادت اللغة العربية والدين الإسلامى غالبية سكان تلك السلطنة ، كما حافظوا أشد المحافظة على اللغة العربية، باعتبارها لغتهم الأصلية ولغة القرآن الكريم ، وقد اشتغل سكان تلك السلطنة بالأعمال التجارية وقاموا بدورهم فى الدعوة الإسلامية؛ حيث وجدت الدعوة للإسلام فى تلك البقعة مرتعا خصباً بين الشعوب الوثنية .

وهكذا ظهرت سلطنة «وقات» وهى إحدى سبع سلطنات إسلامية، وينطقها العامة «أوقات» ويقال أيضا جيرة، والنسبة إليها جيرنى، وقد هاجرت إليها جماعة من سلالة عقيل بن أبى طالب، ونزل بنو عقيل فى بقعة يقال لها جبرة أو الجبرتى، وقد نسب هؤلاء المهاجرون إلى تلك المنطقة، فأصبحوا يعرفون بالجبرتية وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبرتى ، الذى ينحدر من هذه السلالة ، واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام فى هذه المنطقة، وبمرور الزمن استطاعوا أن يكونوا أول دولة اسلامية فى الحبشة (سبقت إليها فى الظهور فى الحبشة سلطنة بنى مخزوم فى شوا، وبذلك تكون ثانى سلطنة إسلامية، وليس

أول دولة إسلامية فى الحبشة، كما يقول أحمد شلبى فى كتابه «موسوعة التاريخ الإسلامى» جـ٦ ص١٨٧، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى، كانت من أكبر السلطنات الإسلامية فى الحبشة، وأهل هذه السلطنة يتبعون المذهب السنى على مذهب الإمام الشافعى، وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء .

وقد تحدث عنها أحد ابناء تلك المنطقة الشيخ عبد الله الزيلعى (زيلع)، فقال طول مملكتها خمسة عشر يومًا وعرضها عشرون يومًا بالسير المعتاد، وكلها عامرة أهله بقرى متصلة، وهى أقرب أخوانها إلى الديار المصرية وإلى السواحل اليمنية، وهى أوسع ممالك الطراز الإسلامى السبع أرضًا، وعسكرها خمسة عشر الفا من الفرسان، ويتبعهم عشرون الفا فأكثر من المشاه .

وقد تحكمت فى الطريق التجارى بين ميناء زيلع والداخل، وقد أسسها قوم من قريش مثل سلطنة شوه، ولكن هؤلاء القوم من بنى عبد الدار من بنى هشام من أبناء عقيل بن ابى طالب، شقيق جعفر بن ابى طالب، الذى كان على رأس المهاجرين الأول فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والذين هجروا إلى الحبشة فى العام الخامس للبعثة النبوية عام ٦١٤م. ويبدو أن ابناء عقيل قد هاجروا إلى تلك البقعة، بناء على المعلومات، التى وضعها أمامهم المهاجرون الأوائل ومنهم بالطبع أبناء جعفر بن أبى طالب، والقوم الذين هاجروا إلى الحبشة .

ولم تبرز هذه السلطنة العربية القرشية الهاشمية الإسلامية، إلا فى نهاية القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى، عندما أصبح سلطانها أقوى السلاطين المسلمين فى تلك البقاع الواسعة من أرض الحبشة، والذين كانوا يدينون له بالولاء والاحترام والتقدير، كما يقول القلقشندى «منقادون له» وقال عنها القلقشندى:«هى مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الأرجاء فسيحة الجوانب ، وهى من البلاد المقابلة لليمن على أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ، وبلادهم ليست بذات أسوار ولا لها فخامة بناء، ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد، وتقام بها الخطب والجمع والجماعات، وعند أهلها محافظة على الدين إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه، ولا رباط، ولا زاوية، وهى بلاد شديدة الحر .

وقد استطاع حاكم «اوقات» القوى بعد إسقاط شوه بعدة سنوات أن يفرض سلطانه على الإمارات الأخرى التى كانت صغيرة، لكنها كانت عربية إسلامية مثل عدل ، مورة ، هويت، جداية .

ويعد المقريزى أول من كتب كتابة، تكاد تكون علمية ووافية ودقيقة عن الحبشة فى القرن الخامس عشر الميلادى، عندما كتب عام ١٤٣٤ - ١٤٣٥ كتابه المسمى «الإلمام عما بأرض العرب من ملوك السودان» حيث ذكر فيه اثنى عشر إقليماً من اقاليم الحبشة ، ولكن عبد الله الزيلعى يذكرها سبع إمارات أو ممالك، سميت بدول الطراز الإسلامى؛ لأنها كانت كالطراز الذى يحيط بالهضبة الأثيوبية، وهى سلطنة «وقات» أو «اوقات» (دوارو - ارابينتى - شرما - هدية - بالى - داره) .

وكانت دوارو هى القاعدة الثانية بعد «أوقات» وطولها خمسة ايام وعرضها يومان، وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر «اوقات» فى الفارس والراجل (خمسة عشر الف فارس ، عشرون الف راجل) والإمارة الثالثة وهى إمارة (أرابينى)، وطولها أربعة أيام وعرضها أربعة كذلك، وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس والراجل كثيرون جدا والقاعدة الرابعة من هذه القواعد هى إمارة هدبه (والهاء والدال المهملة والباء المثناه التحتية، ثم هاء فى الآخر) .

وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة (أوقات)، وبين خط الاستواء، وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة ايام، وصاحبها أقوى إخوانه من سلاطين هذه السلطنات السبع، وأكثرها خيلا ورجالا وأشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار «أوقات» وسلطانها ، وتملك قوات عسكرية نحو أربعين الف فارس سوى الرجالة ، أى أكثر قوة فى أى من الإمارات الأخرى ، بالإضافة إلى أن عدد عساكرها الراجلة يصل إلى ثمانين الف فارس .

والإمارة الخامسة «شرما» وطولها ثلاثة أيام، وعرضها أربعة أيام، وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجاله مثل ذلك مرتين أو تزيد قليلاً ، والامارة السادسة هى امارة «بلى» أو «بالى» وتلى «شرما»، وطولها ثلاثة وعرضها كذلك، ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكاناً وأبرد هواء ، والسابعة هى «دارة» وهى أضعف إخوانها حالاً وأقلها خبرا ورجالاً، وعسكرها لا تزيد عن ألف فارس ورجالة كذلك .

وقد أشار كثير من المصنفات العربية إلى هذه الممالك مثل القلقشندى، الذى تحدث عن الممالك الإسلامية ، التى كان نجاح العرب فى تكوينها فى الحبشة- على أسلوب عربى ونهج اسلامى- كان حصيلة حسن العلاقات الطويلة، التى قامت بينهم وبين الأحباش ، ولكن الذى يمكن قوله أن ملوك الأحباش كانوا ينظرون إلى ملك الدويلات الإسلامية فى

بلادهم بعين الحذر والشك والحقد؛ لارتقائها حضاريا وثقافية وتقدمها مدنيا واقتصاديا ، إلا أنه مع كل ذلك التقدم فإن هذه الولايات السبع، التى لم تستطع أن تتوحد، كانت تعانى كثيراً من عوامل الضعف والتفكك والانهيار، بسبب المنازعات التى كانت تقوم بين بعضها والبعض الآخر؛ مما ساعد ملوك الحبشة فى بذر بذور الشقاق بين هذه الإمارات، والتدخل فى شئونها الداخلية، وتنفيرها من بعضها البعض؛ حتى لا تخضع جميعها لمملكة واحدة، وتكون قادرة على القيام لمواجهة الحبشة .

وعلى هذا فإن نتيجة لقيام تلك السلطنات الإسلامية، وانتشار الإسلام فى الحبشة والمناطق المحيطة بها ، فإن أبناء الحبشة من هذه الإمارات قد شدوا الرجال إلى بر اليمن؛ للتردد على مدارسها العربية الإسلامية المنتشرة فى عديد من مدنها؛ للتزود بالعلوم الإسلامية. ومن هنا أخذت صلة تلك الإمارات الحبشية تتوطد باليمن ، بل إن تلك البعثات العلمية أخذت تتابع بعد ذلك؛ خاصة فى عصور الاستقرار السياسى، وعدم تعرض تلك الإمارات للغارات المسيحية الحبشية .

ولقد كان الملك فى تلك السلطنات الإسلامية يتوارث، ومحفوظ فى أعقاب هؤلاء السلاطين وأحفادهم إلا إمارة «بالى» التى صار الملك فيها إلى رجل، ليس من بيت الملك، والذى تولى الملك واستقل بها .

كذلك فإن القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى قد شهد تسرب التيار الإسلامى إلى مناطق جنوب بلاد الحبشة، وفى مرتفعات شرق شوه ، ويعود ذلك النشاط الإسلامى إلى الجهود التى بذلها سلاطين شوه قبل سقوطها أمام سلطان «اوقات» ؛ حيث كان القرن الثانى عشر الميلادى والسادس الهجرى قد شهد دخول الإسلام إلى بلاد اورجيبا Argobba ، التى ضمت إلى «أملاك» بنى مخزوم .

ولقد كان ظهور تلك السلطنات الإسلامية بهذه الصورة، التى كانت عليها إنما جاء من اعتبار المسلمين ونظرتهم إلى أرض الحبشة، على أنها لم تكن أرض جهاد، ولهذا السبب تأثر مسلك المسلمين فيها بالطابع السلمى ، حيث اتخذ ذلك الاتجاه بعداً مغايراً للبلاد، التى تم فيها الجهاد الإسلامى، ومن هنا انتهى الأمر إلى ظهور عدة سلطنات إسلامية فى بلاد الحبشة، ولكن بمرور الزمن أخذ النشاط العربى الإسلامى فى الازدياد؛ حتى تم للمسلمين عزل الحبشة عزلاً يكاد يكون تاما عن العالم الخارجى؛ خاصة بعد استيلاء المسلمين على

السواحل الشرقية، التى هى مخرج الحبشة إلى الخارج، إضافة إلى الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام فى مصر، والجزء الشمالى من السودان، وساحل أفريقيا الشرقى، كل ذلك أوجد حالة خطيرة بالنسبة للحبشة التى أصبحت محاطة ببلاد إسلامية ، بل أخذ الإسلام يتسرب فى بلاد الحبشة نفسها؛ حيث قامت سلسلة من الامارات الإسلامية، امتدت من الحبشة حتى منطقة البحيرات الاستوائية، كما تعددت المراكز العربية والإسلامية على طول سواحل الصومال .

وهكذا امتد التيار الإسلامى حتى أظلّ ظل الهضبة الحبشية نفسها، حيث إنه مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى، أسلم كثيرون فى بلاد الحبشة نفسها، ولكن سلاطين تلك الامارات ظلوا- مع ذلك- كلمتهم متفرقة والعلاقات بينهم فاسدة ، ثم يضيف الشيخ عبد الله الزيلعى وغيره مثل القلقشندى والمقريزى ، أن هؤلاء السلاطين السبع لو انفقت كلمتهم، واجتمعت بينهم فإنهم يكونون اكثر قدرة على مدافعة خطر الأحباش .

وقد اضاف ابن فضل الله العمرى فى مخطوطه «مسالك الابصار بممالك الأمصار» بالتعريف بعدة سلطنات، أو بلاد غير السبع إمارات المشار إليها، فأشار إلى جزيرة «دهلك» وهى جزيرة مشهورة على طريق المسافرين، فى بحر عيذاب إلى اليمن، وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا، وسلطان دهلك من الحبش المسلمين ، وكذلك هناك إمارة «عوان» أو مدينة «عوان» على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن .

وعلى هذا فإن القرن الثالث عشر الميلادى قد وضح فيه نمو هذه المدن السياسية وزاد الإسلام رسوخًا بين أهلها، وبدأت تتسع رقعتها بالتدريج لممتدة إلى المناطق الداخلية، وظهرت هذه السلطنات بالصورة الإسلامية التى كانت عليها ، غير أن هذه السلطنات السبع تختلف من حيث التكوين والنشأة والظهور عن كثير من الأقطار الأفريقية والإمارات الإسلامية فى تلك الفترة الزمنية نفسها، فلم تكن هذه السلطنات الحبشية أفريقية خالصة ، أسستها أسرات حبشية من أهل البلاد الأصليين، الذين اسلموا، واتخذوا الإسلام عقيدة لهم ، وإنما أسستها أسرات عربية استقراطية دينية قرشية مخزومية، أو هاشمية أو أسرات عربية غربية النسب، وغير معروف نسبها ، فسلاطين «أوقات» و«شوه» وغيرها من السلطنات الإسلامية الأخرى، التى أسسها حكام معروفو النسب، يمثلون ارستقراطية عربية مهاجرة، استقرت بهذه الجهات، ونمت ثرواتها واتسع نفوذها وكثر اتباعها، وسلمت مقاليد الحكم

فى هذه السلطنات ، وإذا كانت هذه السلطنات عربية خالصة على هذا النحو ، فإن الرعية المسلمة كانت أهل البلاد الأصليين، أو من قوم خليط من العرب الوافدين، وأهل البلاد الأصليين .

ويمتاز دور هذه السلطنات بأنها ما كادت تكتمل نموها ويزداد قوتها ويتسع نفوذها وتقييم قواعد حكمها؛ حتى تكون قد خاضت غمار حرب صليبية مع نجاشى الحبشة، استنزفت كل موارد هذه السلطنات، وقللت من نشاطها الثقافى والعلمى ، بل إن ذلك الصراع بين قوى غير متكافئة انما كان يشغل وقت كل هذه الإمارات، ومن هنا كان يحول دون اهتمامهم بقضية الدعوة الإسلامية .

ويمتاز هذا الدور أيضا بأن انتشار الإسلام فى شرق أفريقيه بل بقاء الإسلام، إنما كان يتوقف على نتيجة الصراع الدموى، الذى لم يهدأ مع الأحباش المسيحيين، وعلى نصيب هذه السلطنات من النجاح فى حماية المسلمين وصيانة التراث الإسلامى، الذى توطد فى البلاد منذ عهد بعيد ، وبهذا فإنه لم تنج سلطنة أو امارة من الاشتباك فى هذه الحرب الضروس من جميع الإمارات الواقعة شمال مقديشيو .

وعلى هذا فإنه لا غرابة اذاً إذ بدأ الضعف يدب فى كيان الحبشة، كما أخذت سلطة ملوكها فى الانكماش وخصوصا على السواحل المجاورة لها، والتى أخذت تستقر فيها دعائم حكم الإمارات الإسلامية، وعلى يد هؤلاء ومن اختلط بهم من الأحباش أخذت سواحل البحر الأحمر تستعيد نشاطها الملاحى والتجارى؛ اذ وقعت التجارة والسيطرة البحرية فى أيدى العرب؛ الأمر الذى جعل موارد الحبشة بل وعلاقاتها الخارجية مع غيرها من البلاد تقع فى أيدى المسلمين وقد خلقت هذه المشاكل والمتاعب لحكام الحبشة الذين رأوا العمل على الحد من نشاط الإمارات العربية ونشاطها الإقتصادى، ومن سيطرتهم على مرافق التجارة وطرف القوافل؛ مما كان سببا لقيام حروب ومنازعات داخلية بين المسلمين والقوى المناهضة لهم، وقد استمرت هذه الحروب والمنازعات حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد حاول النجاشى يكونو املاك Yokono Amlak (١٢٧٠ - ١٢٨٥م) الانتقام من المسلمين، على اعتقاد أنهم هم الذين مكنوا البيت الزغاوى من الاستيلاء على الحكم، غير أن الواقع يرجع إلى أن هذه الحروب التى دخل فيها النجاشى، والتى بلغت ذروتها فى منتصف القرن السادس عشر، نشبت نتيجة أن العرب قد سيطروا على الحياة الاقتصادية،

فقبضوا عن طريق تلك السيطرة على عصب الحياة اليومية، ولقد رأى النجاشى فى شن الحرب علاجاً لهذا الوضع .

لكن نلاحظ أن نجاشى الحبشة لم يتعرض فى ذلك الوقت للولايات الإسلامية، التى كانت قائمة حينذاك، على الرغم من كراهيته الشديدة للقائمين بالحكم فيها ، وقد كان العامل الدينى هو العامل الأساسى، الذى ربط تلك العداوة بالدافع الدينى ، إضافة إلى سيطرة المسلمين على التجارة فى داخل الحبشة، فصار بها ولاؤهم، وكانوا أيضاً يسيطرون على الموانئ وعلى طريق القوافل، وعلى الرغم من هذه العوامل، فقد كان النجاشى ينظر إلى تحسن العلاقات بينه وبين سلطان مصر ، لكن شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر حدوث حروب بين نجاشى الحبشة، وبين سلاطين الولايات الإسلامية وهى أوقات ، دوارة ، هدية ، بلى ، أرابينى، وغيرها من الامارات الأخرى، واستمرت هذه الحروب حتى منتصف القرن السادس عشر، بل إنه يذكر أن سلطان «أوقات» السلطان خير الدين، هو الذى بدأ بالهجوم على الحبشة، ويقول ان هدفه إن يعتنق السكان المسيحيون الدين الإسلامى ويتهم السلطان قلاوون سلطان مصر بأنه هو الموغر إلى السلطان خير الدين، سلطان «أوقات» بشن هذه الحروب.

ومن هنا يتضح لنا أنه بعد استقرار البيت السليمانى فى الحبشة ، فإن روح التعاون والمسالمة بين الطرفين، قد انتقلت إلى العدوان السافر الصريح ، هذا العدوان وطبيعته واتجاهاته واثارة فى حاجة إلى نقف عنده بعض الشئ ، بعد أن استطاع البيت السليمانى أن يسترد سيطرته الداخلية الكاملة على كل أرجاء الحبشة، وهكذا كان ظهور البيت السليمانى مقترناً بجهود ضخمة؛ لصبغ البلاد بالصبغة المسيحية، والقيام بجهد كبير لنشر المسيحية .

ولقد كان من دوافع حكام الحبشة إن كثيرا من أهل الحبشة قد تحولوا إلى الإسلام وأقاموا ببلادهم المساجد لإقامة شعائرهم الدينية، وظهر بين المجتمع كثير من العلماء والفقهاء والزهاد حيث كان الشعب الحبشى قد اتخذ المذهب السنى مذهباً دينياً له، إلا أن بعضهم كان يتخذ المذهب الشافعى، والآخر يتخذ المذهب الحنفى، وبعضهم يتخذ المذهب الشيعى عقيدة له، وإن كان ذلك يشكل الأقلية فى البلاد .

ولما كانت «أوقات» أكبر وأوسع هذه السلطنات، فانه وقع عليها عبء مقاومة الاعتداء الحبشى المسيحى، وكانت أهم مدنها مدينة زيلع (وهى مدينة صغيرة تقع على الشاطىء الغربى لخليج عدن ويقع بين خط طول ١٤ ، ٣٤ ، ٤٣ شرقى خط جرينتش، وعلى خط

عرض ١٩/٥٢/ ١١ شمال خط الإستواء، وكانت مبنية بسور مبنى بالحجر، بلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، وكانت له ثلاثة أبواب أحدها فى الشرق، والثانى فى الشمال، والثالث فى الجنوب، وبلغ طول المدينة هذه حوالى اربعمائة وثلاثين مترا، وعرضها حوالى ثلاثمائة وثلاثين مترا، وبلغت مساحتها حوالى ثلاثة وثلاثين فدان .

وشاطىء زيلع كانت تكثر به الشعب المرجانية، التى تعوق مرور السفن القادمة إليها ، وكانت زيلع تحصل على مياه الشرب من مياه الأمطار المتجمعة بالقرب منها ، ويعمل السكان فى زيلع بالتجارة فكانوا يستوردون من عدن الأرز والمسلى والفضة والخرز والذرة والبلح والسكر الهندى ، وكانوا يستوردون من قبائل العيسى جنوبًا، وقبائل موسى الأبقار والغنم والجلود والبن والصمغ وريش النعام ، وأنهم يتاجرون فى سن الفيل والملح ، وكان زيهم عبارة عن قطعة قماش يسترون بها الجزء الأسفل من الجسم ويظل باقى الجسم عاريا وكان من عاداتهم أن يتقلدوا بالأسلحة البيضاء الممثلة فى السيوف والخناجر، سواء أكانوا رجالا أم أطفالا .

ويواجه ميناء زيلع ثلاث جزر مهمة هى: ماشا Masha ، أبيات Abyat ، سعد الدين Saad El Din والذى اتخذ شاطىء أرتيريا اسمه من تلك الجزيرة؛ حيث اطلق عليه بعض المؤرخين شاطىء سعد الدين ، أو بر سعد الدين، وجزيرة سعد الدين لا تبعد عن زيلع إلا بمسافة لا تزيد عن ميلين، وهذه الجزر لها أهميتها بالنسبة لزيلع، إذ إنها كانت تمون المدينة باكثير من حاجتها فى زمن الخريف .

والشائع أن زيلع قد نشأت وأقيمت بيد العرب المهاجرين، الذين جاءوا إليها من اليمن وهاجروا أولا للجزر المقابلة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشاطىء نفسه واستقروا به . وقد أصبحت ذات شأن فى شرق افريقيا مع بداية القرن السابع الميلادى، عندما انتشر الإسلام بين أهلها؛ حتى أصبحت ذات شأن عظيم حتى أنه قيل إن ممتلكات زيلع كانت من الاتساع بمسيرة ثلاثة وأربعين يوما، وكانت مقسمة إلى تسع مقاطعات، وقد عرفت باسم بلاد عدال .

وقد اشتهرت زيلع فى القرن الرابع عشر بحروبها مع الأحباش، التى انتهت بانهزام أمراء زيلع، وكانت النتيجة أن انكمشت المدينة، حتى أصبحت مقتصرة على الميناء، الذى لم يلبث طويلا حتى سقط فى يد الأحباش، الذين عاثوا فيها فسادًا ، وفى القرن الخامس عشر برز بطل من أبطالها الأفذاذ يدعى (سعد الدين)، حاول تحرير وطنه من قبضة الأحباش،

لكنه استشهد ، إلا أن دماءه لم ترق عبثا، فقد استأنف أبناؤه وهم ، صابر الدين وعلى ومنصور وجمال الدين وسعد الدين ، الجهاد وانتصروا على الأعداء الأحباش، واطلق اسم سعد الدين على الجزيرة القريبة من زيلع ، ولما فتح الأتراك اليمن ، هاجر كثير من أهلها إلى الساحل الأفريقى المقابل، الذى عمر بالوافدين إليه ، كما انتقلت تجارة الهند للساحل الأفريقى؛ مما دعا الأتراك إلى العمل على وضع أيديهم على الموانىء الغنية فى هذا الساحل، ومنها ميناء زيلع، واتخذوا منها مركزاً تجاريًا، يتحكم فى تجارة الهند المارة بباب المندب إلى أرض عدل ، بل استطاع الأتراك أيضًا بوضع أيديهم على زيلع أن يهددوا الحبشة نفسها، وقد يعلل عدوان الحبشة على هذه الولايات الإسلامية تعليلا اقتصاديا؛ حيث وجد الأحباش أن المسلمين استطاعوا فى عصور سابقة أن سيطروا سيطرة كاملة على الحركة التجارية بين موانى البحر الأحمر وداخل البلاد .

لقد كان الدافع المحرك للقيام بالعدوان الحبشى على تلك الإمارات الإسلامية ، ذلك أن هذه الإمارات قد سيطرت على التجارة الخارجية، وأصبحت موارد البلاد وعلاقاتها بالعالم الخارجى كذلك فى قبضة المسلمين ، وقد ترتب على ذلك أن بعض المدن التجارية المشهورة فى الحبشة والتى كانت مزدهرة اقتصاديا ، قد بدأت تفقد كيانها، بل تختفى من كيان الحركة الاقتصادية ، وأدى ذلك إلى فقدها لنشاطها؛ بسبب سيطرة المسلمين لتجارة البحر الأحمر، وما أدى إليه ذلك من نتائج اقتصادية .

وإن كانت الآراء تجمع كما سبق القول أن العامل الدينى كان هو المحرك الأساسى فى تلك الحرب الدائرة بين الامارات الإسلامية والبيت السليمانى الحبشى الحاكم ، حيث إن تلك الامارات قد تجاوزت دور النشأة والتكوين، وظهرت هذه السلطنات الإسلامية بدور مهم، تمارسه فى الحياة العالمية الإسلامية، بعد أن زادت ثروة وقوة، وتضاعف عدد سكانها، وازداد عدد الداخلين من الاحباش فى الإسلام، بعد ازدياد نشاط الدعوة المسلمين من خلال أعمالهم التجارية والدينية ، بل إنه يذكر أن تلك الإمارات استطاعت فى تلك المرحلة أن تكون فى موقف الند للدولة الحبشية، بل إنها ارادت أن تتحدى النفوذ الحبشى، وأن تدافع عن نفسها وسيادتها وأن تبادئها العدوان.

وقد أورد الدكتور حسن محمود فى كتابه «الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا» قائلاً، إن الصراع الذى دار بين ممالك الطراز الإسلامى السبع، التى كانت تحيط بالحبشة من الشرق والشمال والجنوب، كانت مسرحاً لحركة صليبية ضخمة حبشية، لم تستمد عوامل الصراع من بيئة داخلية محلية، بل إن أسباب الصراع كانت تستمد أسبابها من قوى عالمية ذات

أهداف صليبية مرسومة، وهى ضرب القوى الإسلامية، ومحاربة الوجود الإسلامى فى كل مكان، كما حدث فى الأندلس وبلاد الشام، ومن هنا كان دفع الأحباش دفعاً نحو الالتحام بالقوى الإسلامية المحيطة بها ومحاولة إخضاعها والقضاء التام عليها، وعدم السماح لأى نفوذ أو قوة اسلامية بأن تمارس دورها فى تلك البقاع الشمالية فى شرق أفريقيا .

ذلك لأنه من الثابت تاريخيا أن الأحباش من البيت السليمانى، كانوا على اتصال وثيق بالحركة الصليبية، التى تدور رحاها على أرض الشام، بل إنهم كانوا يعرفون أدق امور الصراع ويتابعون أخبار ذلك الصراع بين القوى الإسلامية والقوى الأوربية الصليبية الباغية، وقد كان واسطة ذلك الاتصال بين القوى الصليبية والقوى الحبشية رهبان دير الأحباش، الذى أقامه حجاج الأحباش فى بيت المقدس، ومن ثم كان هناك وجود صليبى حبشى فى القدس، لم تحاول القوى الإسلامية التعرض له بعد فتح صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس، ولكن الأحباش كانوا يتخذون هذا الدير مكاناً للتجسس، وإيصال الأخبار إلى الحبشة وما يجب أن يقوم به قادة المسيحية فى الحبشة إزاء الإمارات الإسلامية ، ومن هنا كان الأحباش يتابعون الدور الذى تقوم به الحركة الصليبية فى الشام عن طريق هذا الدير، وعن ما يقوم به الرهبان والقساوسة من تقديم معلومات للنجاشى .

الإمارات الشمالية و صراع الأحباش :

لقد سبق القول بأن امارة «أوقات» كانت أقوى الإمارات الإسلامية السابق الإشارة إليها، ومن هنا وقع الجهاد والنضال؛ من أجل نشر الإسلام ورفع رايته، ومواجهة الخطر الحبشى والجهود الصليبية الحبشية للقضاء على القوى الإسلامية، وعلى تلك الولاية الإسلامية، ومن هنا كان القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، هو القرن التى وقع فيه عبء الجهاد الإسلامى على إمارة «أوقات» ، ذلك لأن تلك الإمارة والقوى الإسلامية قد بدأت تأخذ بعداً جديداً فى حركة النضال الإسلامى، عندما أحست أن قوتها العسكرية تمكنها من استعراض القوى الإسلامية، ومن هنا بدأ التوسع الإسلامى نحو الداخل؛ حيث الهضبة الحبشية، وبدأ الإسلام يوغل فى الاتجاه الغربى، مندفعاً للصعود نحو السيطرة على البقعة المرتفعة واحتوائها تحت لواء الإسلام .

وكانت إمارة «هدبة» إحدى الإمارات السبع، قد بدأت تمارس كيانها الإسلامى فى المنطقة الواقعة بين وجيبى وحواش؛ حيث احتلت بقعة واسعة ومتسعة من الأراضى، التى

تجاور الأحباش المسيحيين، كما أن هذه الإمارة قد تكون من أحدث الولايات السبع، التى ظهرت فى سماء الحياة الإسلامية فى تلك البقاع؛ حيث إن الطبقة الحاكمة العربية قد سيطرت عليها، وبدأ الأحباش فى اعتناق الإسلام بصورة فعالة وقوية .

وقد تغلب نجاشى الحبشة فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلاد على هذه الإمارات الإسلامية وضربها وقتل أهلها، وأحرق ما بها من مصاحف، وارغم اكثر سكانها على اعتناق المسيحية، ولم يبق من هذه الامارات الإسلامية خارج طاعة التجاشى، سوى ابن سمار الذى تقابل بلاده جزيرة دهلك، والسلطان سعد الدين صاحب زيلع، وما يليها، وكانت بينهما حروب، كان النصر فيها حليف السلطان الإسلامى .

وحدث حوالى عام ١٣٠٠م/ السابع الهجرى أن شق أحد الدعاة المسلمين طريقه إلى داخل الحبشة، وأخذ يدعو اهلها إلى الإسلام، وتمكن من هداية مائتى الف مسلم؛ حيث استطاع بهذه القوة الإسلامية ان يهاجم ملك أمهر المسيحى واشتبك معه فى كثير من المعارك، ويقول أرنولد توماس فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» ، إنه فى نهاية هذا القرن، انشغلت بلاد الحبشة بالحروب الداخلية، التى صحبتها حالة من القلق والاضطراب، ومهدت بذلك السبيل للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل من طرد أهل الحبشة إلى المناطق الداخلية.

وقد كانت غالبية الناس فى المناطق الداخلية من السداما والجوارجى والشاسو ، فقد كانت تباشير الإسلام قد بدأت تصل إليهم، مع أن غالبية هذه القبائل كانت لاتزال على الوثنية، وكان الإسلام لايزال فى طريقه نحو الانتشار، وقامت إمارة «هدبة» بمحاولات عديدة وكثيرة؛ لمد نفوذ الإسلام وانتشاره فى المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر جيبى، وهكذا كانت امارة شوه العربية المخزومية القرشية، التى قامت عند الأنحاء القريبة لنهر حواش، أو عند النهاية الجنوبية الشرقية من هضبة «شوه» ، كما شاركتها حركة النضال الإسلامى إمارة «داورو» التى كانت تقع جنوب «شوه» وتمتد حدودها حتى الضفة اليمنى لنهر حواش، وتوغلت جنوبا حتى نهر وبينى، ولقد كانت تلك الإمارة من أقوى الامارات الإسلامية، فى هذا النطاق الداخلى كله .

ولقد ظهرت كذلك إمارة «بالى» او «بلى» بين نهر العربى فى الشمال، وجبال دوريا فى الجنوب؛ فهى بهذا الوضع تتحكم فى سهول الصومال، وتجاور أوطان الداما والجلا .

وفى أقصى جبال أمحرة، ظهرت مدينة «هرر» كمركز من مراكز السيادة والنفوذ الإسلامى فى هذه البلاد، وهى مدينة قديمة النشاط، أسسها المهاجرون الساميون القدماء، ولازال أهلها يتكلمون لسانًا ساميًا وقد اعتنق أهلها الإسلام، وأصبحت من أهم المراكز التجارية ، وهى مدينة أو سلطنة إسلامية مستقلة، أسستها جماعة من العرب، كانوا قد هاجروا من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، الأول الهجرى، واستقروا أولاً فى الأرض المنخفضة الملاصقة لساحل البحر الأحمر، وبعدها أخذوا يتوغلون نحو الداخل، بقدر ما سمحت لهم به طبيعة البلاد، وبقدر ما استلزمته منه مطالب حياتهم ومعيشتهم من تجارة ورعى وغيره، ثم اندمجوا فى السكان الأصليين، وقد كان للعرب اتساع فى تلك الأقاليم؛ حيث حمل العرب معهم- إلى هذه البلاد التى هاجروا إليها- حضارتهم، واستقروا فى تلك الديار الجديدة ،وأضحوا يزاولون نشاط الدعوة الإسلامية والنشاط التجارى والرعوى والزراعى، وعاونهم على ذلك اتصالهم ببلادهم الأصلية ومهارتهم فى الملاحة .

وقد عظم شأن «هرر» عندما قامت بها سلطنة إسلامية عظيمة، تعرف فى التاريخ باسم سلطنة «عدل» التى اتخذت زيلغ عاصمة لها كما دخلت فى نطاقها فيما بعد إمارة «بربر» .

وقام بين «هرر» الإسلامية والحبشية المسيحية نضال طويل، يرجع إلى عدة أسباب، منها: الاختلاف الدينى، وكذلك أهمية موقع هرر وملحقاتها كمنافذ وكسوق لتصريف منتجات الحبشة واستيراد ما تحتاج إليه من جهة أخرى ، وفى ختام القرن الخامس عشر استطاع الأمير محفوظ أمير «هرر» أن يوجه ضربة قاصمة للحبشة؛ للتغلب عليها وإحراق محاصيلها والاستيلاء على عديد من الأسرى، كما أنه كان له دور أكبر فى قتل الإمبراطور إلكساندر الذى حكم (١٤٧٨ - ١٤٩٥م)، وكانت «هرر» تقع على خط عرض ٩,٢٠ شمالا خط الاستواء، وخط طول ٤٣,١٧، وتبلغ مساحتها حوالى أربعمائة وواحد وثمانين ميلا، وثمانمائة واثنى عشر متراً مربعًا، وهى محاطة بسور من جميع جهاتها، وكان من أعظم مبانيها الجامع الكبير، وكان بها ضريح الشيخ عمر أبى ذر البكرى، الذى قدم إليها من جدة، ومات بها ودفن فى الجانب الجنوبى منها، ويبلغ عدد سكانها حوالى خمس وثلاثين ألف نسمة، وكانوا يدينون بالديانة الإسلامية جميعهم على مذهب الإمام الشافعى، فكان الأطفال يدرسون فى الكتاتيب نهاراً، وكان الكبار يدرسون ليلا، كما كان بعض منهم يدرس الشريعة الإسلامية على أيدى كبار العلماء .

وكان من أهم القبائل التابعة لهرر قبيلة «الجارس»، التى تنقسم إلى ستة (أقسام)

صغيرة، وقبيلة «الجرى» التى تنقسم ايضا إلى عدد من الأقسام، وقبيلة «البابلى» ، وكذلك يوجد عديد من القبائل الصغيرة، التى تقطن ضواحى «هرر» ويعمل أفراد بعض هذه القبائل بالزراعة والبعض الآخر منها يعملون بالرعى .

وهكذا كانت الدويلات الإسلامية، والتى منها «هرر» تحيط هضبة الحبشة، والتى عرفت فى التاريخ باسم ممالك الطراز الإسلامى .

إلا أنه رغم قوة مدينة وإمارة «هرر» إلا أن إمارة «أوقات» كانت أقوى هذه الإمارات وأعظمها رقعه وتهيأت لتولى زعامة الحياة الإسلامية بحق ، وقد ظهر من امراء امارة «أوقات» أمير المسلمين بها عمر، المعروف بولشمع، وقد كانت هذه الإمارة تدين بالولاء لأمراء داموت، ثم انتقل الولاء للحبشة بعد قضائهم على إمارة داموت ، والمقريزى فى كتابه «الإلمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام» ، يشير إلى أن عمرا هذا ولاه ملك الحبشة مدينة «اوقات» وأعمالها ، ولكن هذه الإمارة قد برزت فى صورة أقوى الإمارات فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى؛ حيث كانت قد قضت على إمارة بنى مخزوم فى «شوه» ، واستطاعت إمارة «أوقات» فى ظل بنى ولشمع، بعد أن ورثت ملك بنى مخزوم أن تبسط نفوذها على هذه الامارات الصغيرة التى اشـرنا إليها بـل استطاعت أن تبسط هذا النفوذ فى سواحل البحر الأحمر، حتى منطقة زيلع ، بل امتد نفوذها إلـى سهـل « اوسا »، ودان لها الأعقار فى الصومال بالطاعة والولاء، وتحكمت فى رقعة فسيحة من الأرض متنوعة الموارد ، كما تحكمت فى كثير من الطرق التجارية الغنية.

وعلى هذا.. فإن القرن السابع الهجرى ، الثالث الميلادى قد شهد وحدة اسلامية، تضم ممالك الطراز الإسلامى بزعامة إمارة «أوقات» وأمرائها، وامتد أثر تلك الوحدة إلى جزء كبير من جنوب شرق الحبشة وساحل البحر الأحمر، بل إنه اوغل فى بلاد الحبشة ، وكان ظهور تلك الوحدة أو التحالف الإسلامى، حين استشعر الخطر المحدق به من قبل الحبشة المسيحية، بعد أن وضح الاتجاه الصليبى لتصفية وجود هذه الإمارات، بعد أن تولت الأسرة السليمانية مقاليد الحكم فى الحبشة ، ومن هنا فإنه كان لابد أن تبدأ مرحلة جديدة، تقوم بها الامارات الإسلامية بمواصلة حركة الجهاد الإسلامى ، وكانت بداية تلك الحركة الجهادية الإسلامية، عندما أحس أمراء «أوقات» بقوتهم وعزتهم، وقدرتهم القتالية على مواجهة الحبشة، فكان ان أعلنوا عدم الخضوع لأوامر التجاشى، وطرح هذه التبعية الاسمية، وكان ازاء هذا التصرف من أمراء «اوقات» تجاه الحبشة، وعدم دفع الجزية أو ما تطلبه الحبشة، ما

يعتبر من وجهة نظر الحبشة تحرشًا إسلامياً أو استهانة بقوة النجاشى وعدم الاكتراث به وبدولته ، بالإضافة إلى أن نجاشى الحبشة كانوا يترقبون بحذر ويخشون كل الخشية أن تؤدى قوة «اوقات» وحركة الوحدة الإسلامية، وتلك الجهود الإسلامية المبذولة إلى عرقلة المشروعات الصليبية، التى كانوا قد أوشكوا فى القيام بها. ونجد بعض الكتاب العرب قد ساروا على نهج القس الأمريكى سبنسر ترمنجهام، فى كتابه «الإسلام فى الحبشة»، واتخذوا أقواله حجة على حركة الجهاد الإسلامى ، الذى كان طابع العصور الوسطى، بل هو المحرك الأساسى للإحساس بالعزة الإسلامية، ومحاولة جعل أسباب الصراع أسباباً اقتصادية بحتة، ويجب أن نأخذ هذه الأقوال بحذر؛ ذلك لأن الشعور الصليبى المعادى للمد الإسلامى فى تلك الفترة، كان على الشدة؛ لاسيما فترة الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وما تلا ذلك من حركة الجهاد الإسلامى .

فنجده مثلا يهون ويحاول أن يضعف قوة الحركة الإسلامية، فيطلق على الوحدة الإسلامية تحالفاً إسلامياً ويقول إن مساحة «اوقات» كانت أكبر من مساحة مملكة الحبشة المسيحية نفسها، ويتناسى فى ذلك أن الحبشة كانت تسيطر على الأرض الحصينة، فى حين كانت ديار الإسلام صحراء جرداء، نتشر فيها مجموعة من البدو الرحل، أما الأحباش فكانوا مستقرين ، كذلك يقول ترمنجهام إن حركة الجهاد التى تزعمتها «أوقات» لم تكن حركة جهاد دينية منبعثة من شعور دينى دافق، يغمر الشعب كله، ويدفعه الى القتال عن عقيدة وإيمان، بل كان الهدف اقتصادياً ومن هنا هزمهم الأحباش .

ولقد كان تدخل سلطان مصر المملوكى ، الظاهر بيبرس فى ذلك الوقت من الأسباب القوية، التى أدت إلى عقد هدنة بين الأحباش وأمراء «أوقات» وإعادة فتح الأحباش بلادهم للتجار المسلمين ، لكن سلاطين «أوقات» لم يكن ليقتنعوا بالهدنة، وقد اتخذوا الجهاد الإسلامى فى سبيل الله وفى سبيل نشر راية الإسلام خفاقة عالية بناء وعقيدة، فانقلب السلطان حق الدين من الاغارة غير المنتظمة على حدود الحبشة، إلى الهجوم المنظم، وقام بغزو أطراف الحبشة (مثلما فعل نظيره فيما بعد الأمير محفوظ أميرّ هرر)، فقد قام بالانتقام من الغزو الحبشى السابق، وقتل أعداداً كثيرة منهم، واستولى على كثير من الغنائم والأسرى، وحمل بعض الأحباش بعد مجادلتهم بالتى هى أحسن إلى اعتناق الإسلام؛ مما يعطى الدليل القاطع إلى أن حركة الجهاد كانت إسلامية بحتة، ولا تعرف الطابع الاقتصادى، إلا أن القرن الرابع عشر (١٣٢٧م) قد شهد بعداً جديداً فى حركة الجهاد الإسلامى، التى نظمتها امارة «أوقات»؛ اذ قام نجاشى الحبشة بغزو بلادّ «أوقات» واسر

السلطان حق الدين ودخلت اوقات وغيرها من الإمارات الإسلامية فى طاعة النجاشى مرة أخرى، ولكن بصورة أسوأ مما كانت عليه الأحوال فى العهود السابقة .

ولكن حركة الجهاد الإسلامى، التى نظمتها ممالك الطراز الإسلامى ضد العناد الصليبى الحبشى، الذى يحاول قلع جذور العقيدة الإسلامية من تلك الديار ، لم تتوقف بمقتل أو أسر سلطان، أو خضوع الديار الإسلامية لسلطان الحبشة ، إنما كانت حركة الجهاد ماضية فى سعيها لنشر الإسلام ، ذلك لأن الإمارات الإسلامية مثل إمارة «هدبة» ، و«دوارو» قد انضمت إلى «أوقات» فى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث ظهر الأمير سعد الدين ، الذى حاول تحرير وطنه من قبضة الأحباش، وكانت خطة الإمارات الإسلامية محاولة إشغال الأحباش بعدوهم التقليدى، وهم شعب الأجو المعارض للأحباش؛ حيث شقت تلك القبائل عصا الطاعة ضد نجاشى الحبشة؛ لشغل النجاشى عما يقوم به المسلمون من هجوم على الحبشة، وكانت خطة المسلمين مهاجمة الحبشة من ثلاث جهات، هى: الشرق والشمال والجنوب ، لكن تلك الخطة علم بها الأحباش؛ مما أعطاهم زمام المبادرة، وتم استشهاد الأمير سعد الدين، وتم للأحباش إخضاع هذه الإمارات، الواحدة إثر الأخرى، وبذلك تلاشت إمارة «أوقات» بعد أن تفرق أبناء سعد الدين ، فى تلك الأراضى الواسعة، وهم جمال الدين ، منصور ، صابر الدين، سعد الدين ، على ، وامتدت حدود الحبشة إلى حافة الهضبة؛ حتى وصلت إلى نهر حواش، وضمت بعض مناطق من إقليم «شوه» .

وقد ذكر القلقشندى فى كتابه «صبح الاعشى» ، أن نجاشى الحبشة قد ملك معظم هذه الإمارات بعد عام ثمانمائة ٨٠٠هـ، وخربها وأحرق مسجدها ومصاحفها، وقتل أهلها، وأحرق المصاحف الكثيرة، وأكره كثيرين من أهلها على الدخول فى دين النصرانية .

وقد ذكر عرب فقيه فى كتابه «فتح الحبشة» ، أن أبناء سعد الدين ليسوا خمسة ابناء ، ولكن له ولدين ، هما أبو بكر وبدلاى ، وبدلاى هذا له ولدان، أحدهما محمد بن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان ، ولأبى بكر ولدان أحدهما على، وهو جد السلطانين بركان وحبيب ، فعلى له أولاد، منهم أظهر الدين، وهذا له محمد، ومحمد له عمر دين، والولد الثانى لأبى بكر اسمه آزر، وهو جد السلطان محمد بن أبى بكر بن محمد بن أزر بن أبى بكر ابن سعد الدين، والولد الثانى لبدلاى بن سعد الدين، اسمه شمس الدين، وقد انقرضت ذريته، وتولى البلاد السلطان محمد بن آزار بن أبى بكر بن سعد الدين عام ٩٣٠هـ، وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والأحباش؛ فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين،

وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وعاد السلطان محمد إلى بلاده، فقتله صهره محمد ابن ابى بكر ابن الأمير محفوظ أمير «هرر»، وملك البلاد بعده سنة واحدة، فقام بقتله ابراهيم بن احمد صاحب بلاد هديه ، مما يدل على أن الصراع بين المسلمين قد عاد مرة ثانية، بدلاً من الوحدة أيام سلطنة «أوقات» ولكن أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع، وقتل فى زيلع وملك البلاد بعده الامير منصور بن محفوظ بن محمد الجراد .

لكن هذه الامارة رغم صدق ايمانها بالجهاد، لم تكن قادرة على مواجهة الأحباش، الذين اتحدت كلمتهم، وتوحدت صفوفهم فى حركة دينية دافقة، حيث كان القساوسة والرهبان هم الذين يقودون الجيوش ، حيث كان البطارقة هم قادة الحروب؛ ففى إحدى الغزوات، كان قائدها بطريق يدعى تخلى سوس، وكان معه ثلاثين بطريقاً من شعب التجرى، وذلك يعطى الدليل على الشعور الدينى المتعصب ضد الوجود الإسلامى ، والتى سعت الحبشة لتقييده؛ حتى استطاعت أن تخضع كل هذه الإمارات لنفوذها خضوعاً مطلقاً، وبدأت روح المقاومة الإسلامية تضمحل وتنكمش، ولم تكن يقادرة خلال القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر الميلادى، على مقاومة الزحف الصليبى الحبشى؛ ذلك لأن القوات الإسلامية لم تستطيع وقف قوات الحبشة الزاحفة رغم تدخل سلاطين المماليك فى مصر ، ولكن قضت الحبشة على كل محاولة إسلامية، وسادت الفرقة والضعف فى القرن الرابع عشر الميلادى .

والذى يتتبع المراجع العربية يجد أن خطوات المسلمين فى داخل الحبشة قد ازدادت، بعد أن دخلت القبائل فى دين الله الخالد، وتكاثر المسلمين فى هذه المنطقة؛ حتى أصبحوا الغالبية العظمى بها؛ فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة متصلة ودائمة، وهكذا ظهرت زيلع كميناء على خليج عدن؛ حيث كانت محطة للعبور إلى الحجاز واليمن، وقد انتشر الإسلام بها منذ عهد مبكر ، فنجد المسعودى فيتحدث عن زيلع والدهلك وباضع؛ فنجده يذكر أنها مدن، فيها خلق كثيرة من المسلمين، إلا أنهم فى ذمة الحبشة، ويقول أبو الفدا:«ويجاور الحبشة فى الجنوب الزيلع، والغالب على سكانها دين الإسلام» ، كذلك فإن عرب فقيه يذكر أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين ، وهكذا فإنه يمكن القول أن زيلع كانت منطقة حبشية، ثم انتشر فيها الإسلام منذ مطلعه، وظل ينتشر رويداً رويداً ،حتى غلب على أهلها ، ثم تكونت بها سلطنة إسلامية، سرعان ما امتد نفوذها، فلما جاء القرن الثالث عشر الميلادى كانت تتزعم الإمارات السبع السابق الإشارة إليها؛ حيث أصبحت

سلطنات زاهرة فى هذه المنطقة، سميت الطراز الإسلامى، وقد تحول إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى؛ مما كان دافعاً لحقد ملوك الأحباش على السلطنات الإسلامية، وهكذا تعمقت بقية سلطنات الطراز الإسلامى فى داخل القارة فى أرض الحبشة الحالية، وكانت أكثرها تعمقاً فى داخل الأراضى الحبشية هما سلطنتا هديه وأرابينى؛ حيث كانتا تعتبر باباً فى نهر السوباط. وبسبب موقع «أوقات» على البحر، وبعدها عن مركز القوة فى الحبشة وامتلاكها ميناء زيلع ، فإنها أصبحت أقوى السلطنات الإسلامية الأخرى المجاورة لها، وأصبح سلطانها أقوى السلاطين؛ ولهذا كان هؤلاء يدينون له بالاحترام والتقدير، وكان قادراً على تحدى قوة النجاشى والوقوف أمام الخطر المسيحى ، ومن هنا غلب اسم «أوقات» على المنطقة كلها فيقال لها «أوقات» أو جبرت أو «عدل» ويقصد بذلك جميع هذه السلطنات، بما فيها ميناء زيلع .

وكانت سلطنة هرر تقع بين هذه السلطنات، وكانت تابعة للحبشة، ثم انتشر بها الإسلام وانتهزت أوقات فرصة ضعف الحبشة، فاستولت على منطقة هرر، وكانت الصلة وثيقة قبل ذلك بين هرر وزيلع؛ لأن زيلع كانت المنفذ البحرى لتجارة هرر، فلما انتشر الإسلام فى هرر قويت العلاقات الدينية والتجارية بين زيلع وهرر، وتهيأت الفرصة لاستيلاء زيلع على هرر ، ولما تم الاستيلاء على هرر، انتقل لها مركز القوة، وأصبحت تقود الصراع بين المسلمين وبين بلاد الحبشة .

وهكذا كان دور الصراع يقع على إمارة «أوقات» بعد ذلك، وإن كانت قد هزمت على أيدى الأحباش فى القرن الثالث عشر، وتم أسر سلطانها ، إلا أن القرن الرابع عشر أو الربع الأخير من هذا القرن قد شهد انتفاضة إسلامية، تقودها أوقات مرة أخرى؛ حيث عاود السلطان حق الدين الثانى القتال ضد نجاشى الحبشة، الذى كان دمر تلك الإمارات الإسلامية، وتحركت قواته غربا تريد أرض الحبشة ، لكنه هزم وقتل واستشهد فى المعركة، وهو يقود حركة الجهاد الإسلامى عام ١٣٨٦م، والتف المسلمون للمرة الثالثة والأخيرة حول خليفتهم السلطان سعد الدين الثانى ، ومن ثم أعلنت إمارة اوقات والإمارات التى اشتركت معه فى الصراع مثل إمارة عدل وموره وتحالفوا مع بعض القبائل البدوية، وأعلنوا الجهاد المقدس واشتركت طوائف الناس كلهم فى هذه الحرب ، وقد قاد سعد الدين الثانى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث خرج معه الفقهاء رجال الدين والقبائل، وقدمت له قوات عربية أخرى وجمع أهل البلاد، وقد تعاهدوا جميعا على الجهاد حتى الموت؛ فكانت بينهما

معركة عنيفة استشهد فيها جمع غفير من القوات، من بينهم أربعمائة شيخ وفقيه، وهكذا فشلت المحاولة الأخيرة لسلطنة «أوقات» للدخول فى الصراع المسلح ضد الحبشة ، ويذكر أن القوى الإسلامية المعاصرة فى ذلك الوقت لم تقم بالواجب، الذى يجب أن تقوم به تجاه مساعدة أخوة الإسلام فى تلك السلطنات، ولم تقدم المساعدة المجدية التى تساعد على تحقيق الانتصارات على الحبشة، أو الوقوف امام التيار الصليبى، الذى يريد أن يقتلع جذور الإسلام فى تلك الأراضى، وهكذا انتهت الانتفاضة الأخيرة، وفر سعد الدين الثانى إلى جزيرة قريبة من زيلع حيث حوصر بها، وقتل عام ٨١٧هـ / ١٣١٥م، فى عهد النجاشى بسحاق، ومن هنا أخذت تلك الجزيرة اسمًا من اسم الشهيد المسلم سعد الدين، وسميت جزيرة سعد الدين، وهى أكبر ثلاث جزر تواجه ميناء زيلع .

وقد قامت زيلع بدور كبير فى حركة الجهاد الإسلامى، إضافة إلى أنها لعبت دوراً اقتصادياً كبيراً؛ إذ كانت تنقل إليها منتجات الحبشة من اللبان والبخور وسن الفيل؛ حيث تتجمع لتحمل مع التجارة الهندية إلى عيذاب، سواء برا أو بحرا؛ لتصل إلى أوروبا، أو إلى عدن لتحمل إلى الهند وبقية موانى شرق أفريقيا. والواقع أن احتكار مسلمى الحبشة للنشاط التجارى فى العصور الوسطى، كان من العوامل المشجعة لزيادة الروابط الاقتصادية بين الولايات الإسلامية من جهة، وكثير من جهات العالم الإسلامى، وعلى رأسها مصر واليمن والحجاز. ويشير القلقشندى فى حديثه عن أهل أوقات وأعمالها، أن معاملتهم بدنانير مصرية ودارهم الواصلة إليها صحبة التجار، وهكذا كان احتلال زيلع بمثابة إسدال الستار على مملكة أوقات التى احتلها الأحباش نهائيا، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى دور أوقات فى الجهاد .

وقد كان سلاطين «أوقات» ومسلمو شرق أفريقيا من عمق الإيمان والتمسك بأهداب الدين الإسلامى، وكذلك المحافظة على التراث الإسلامى والقيم الخالدة؛ بحيث إنه لم يكن انتهاء سلطة ونفوذ «أوفات» من مسرح الأحداث السياسية، أن تكون نهاية المطاف؛ فقد كانت روح الإسلام القوية الكامنة فى أبناء زعماء وشعب ممالك الطراز، تدفعهم دائماً إلى عدم التخلى عن سياسة الجهاد الإسلامى، ومدافعة الأحباش ما وسعهم ذلك من عمل، ومن هنا تركزت حركة المقاومة حول الأمراء ابناء سعد الدين (سبق الإشارة إليهم فى صفحات سابقة) ومن هنا كان عليهم أن يقوموا بالدور والجهاد، وهو دور إمارة عدل .

وقد كان هؤلاء الجميع أبناء سعد الدين، وقيل عشرة وقيل اثنين فقط ، قد لجأوا إلى اليمن عند استشهاد والدهم فى جزيرة زيلع، ومكثوا فى اليمن، فى ظل سلطانها احمد ابن

الاشرف اسماعيل، وأعانهم بما قدم لهم من مساعدات عسكرية ومادية، وشجعهم على مواصلة الجهاد الإسلامى فى شرق أفريقيا ، وأنه لابد لهم من ظهور دورهم الإسلامى على مسرح الأحداث مرة أخرى، بعد أن كان اكبرهم قد اتخذ لقب سلطان عدل، واتخذوا مكاناً بعيداً عن نفوذ الأحباش، قريباً من الحدود الشمالية للصومال فى منطقة يقال لها دكز، وهى عَدِل (بفتح العين وكسر الدال)، وهى إمارة إسلامية قريبة من حدود الحبشة .

ويصف G. Mathew فى كتابه فجر التاريخ الأفريقى إمارة عدل بقوله إلى أقصى الشمال وراء رأس جوردافيو، قامت سلطنة عدل الإسلامية المزدهرة فى القرن الخامس عشر الميلادى، وذلك كأثر من آثار الهجرات العربية المتواصلة والعلاقات التجارية، التى امتدت غربًا حتى الممالك الإسلامية، جنوب الصحراء الكبرى، وكانت تأتى إليها السلع التجارية الأفريقية، وكذلك بعض الحجاج يتنقلون من خلال أراضيها إلى الجزيرة العربية، وقد بسطت نفوذها الإسلامى على المدن التجارية القائمة على الساحل الشرقى لأفريقيا.

وفى خلال ازدهار سلطنة عدل، كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية؛ فعدل تحيط بها من الجنوب والشرق، والسودان يحيط بها من الشمال والغرب، ولم تكن للحبشة موانىء على البحر الأحمر، بعد استيلاء المسلمين على موانئ مصوع وزيلع، وقد أدى ذلك إلى تدهور الحبشة اقتصاديا وماديا، وتمت عزلتها عن العالم الخارجى، فرقدت فى سبات عميق عدة قرون، نسيت خلالها العالم الخارجى، ونسيها العالم أيضاً .

وقد ورد ذكر اسم عدل للمرة الأولى فى تاريخ الإمارات الإسلامية، فى الحبشة للمرة الأولى، عند ذكر سلطنة شوه المخزومية، التى كانت أول سلطنة تظهر فى تلك المنطقة، ثم تقوم سلطنة أوقات بالاستيلاء عليها وضمها إلى ملكها، وكيف أن إمارة عدل خضعت مثلها مثل شوه لأمراء أوقات الذين أسسوا سلطنة أوقات، وذلك فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى .

. وقد شهد القرن الرابع عشر الميلادى ظهور عدل على أنها إقليم مستقل بكيانه السياسى، وسمى أمراؤها عدل الأمراء. ومن هنا فإن عدل كانت من الأقاليم التى خضعت فترة زمنية طويلة لسيطرة اوقات وحكمها أمراؤها ، كما أنه ليس بعيد أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية، تدين بالولاء والطاعة لسلاطين أوقات، كما أن موقعها المتطرف فى الطرف الجنوبى الشرقى للحبشة شجعها على أن تمارس دورها فى التوسع فى الأراضى الواسعة، لكى تقف أمام التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات الإسلامية السابقة .

ومن هنا كان على ابناء سعد الدين أن يعودوا إلى هذه الأراضى الواسعة، القريبة من

البحر، بعد أن أعد لهم سلطان اليمن أحمد بن الأشرف إسماعيل كل ما هم فى حاجة إليه، واختاروا ذلك المكان القريب من البحر، والبعيد عن نفوذ الأحباش؛ حتى يتمكنوا من الاتصال باليمن، وكان نفوذها يمتد غربًا إلى حدود حافة الهضبة، على حين يمتد نفوذها جنوبا حتى رأس جورد فراى، وسميت هذه البلاد بر سعد الدين، تخليداً لسعد الدين الثانى، الذى استشهد فى جزيرة مواجهة لزيلع، وهو يقاتل الأحباش .

وقد رأى المسيحيون بالحبشة فى إمارة عدل خطرا عليهم، يتهدد نفوذهم وقدراتهم، وذلك لاتساعها وقوتها وضم السلطنات الإسلامية إليها ، وكان لابد أن يكون اتساع تلك السلطنة الإسلامية على حساب ضم بعض الأجزاء الحبشية إليها، ومن هنا فإن حروباً عنيفة ستنشب بين الأمراء المسلمين وبين الأحباش ، طالما حقق المسلمون النصر، وضموا مناطق جديدة من بلاد الأحباش لدولتهم. وقد استمرت هذه الحروب بين الطرفين تأخذ بعداً جديداً؛ ذلك لأن سلاطين عدل كانوا قد استأنفوا حركة الجهاد الإسلامى مرة أخرى، فى ذلك القرن؛ لكى يوسعوا حدود دولتهم، ويحاولوا أن يصمدوا أمام خطر الحرب الصليبية الحبشية المندفعة من الهضبة .

فقاد السلطان (صبر الدين الثانى ٨٢٥هـ/ ١٦٢٢م) حركة الجهاد الإسلامى ضد النجاشى بسحاق، صاحب المشروعات الصليبية المعروفة؛ لتصفية الوجود الإسلامى نهائيا من ارض الحبشة، ولكن ذلك المجاهد الإسلامى بعد أن خاض حرباً طاحنة، لم تكن القوى فيها متكافئة، فخسر المسلمون الحرب، ولم يخالفهم التوفيق ، إلا أن ذلك لم يثنِ ويفل من عزيمة المجاهدين فى سبيل محاربة أعداء نور القرآن، فقاد خليفته واخيه منصور بن سعد الدين حركة الجهاد الإسلامى، ولكنه لقى مصير أخيه، واستمر فى حركة الجهاد الإسلامى فى عهد جمال الدين، وفى عهد بدلاى بن سعد الدين، وذلك دون أن يتمكن سلاطين عدل هؤلاء من قهر الأحباش القهر النهائى والقضاء النهائى على قوة الهضبة، أو استرداد أملاك أجدادهم القديمة التى وقعت فى أيدى الأحباش .

وقد صادف الإسلام نجاحًا كبيراً رغم الهزائم العسكرية؛ ذلك لأن الدعوة الإسلامية السلمية بدأت تؤتى ثمارها المرجوة من حركة الدعوة الإسلامية، بين قبائل الجلا، الذين استوطنوا بلاد الحبشة؛ حيث كان أكثر المسلمين يقيمون جنوب الحبشة، وقد تحول عديد من هذه القبائل إلى الإسلام فى عام ١٥٠٠م، وصادف هذا الدين نجاحًا كبيراً ورائعًا بين أهالى السهول، وانتشر على أيدى الدعاة، الذين كانوا فى زى التجار .

وقد لقى هؤلاء الدعاة ترحيبًا حارًا فى بلاط الجلا، وبين قبائلهم، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية، وانتهز هؤلاء التجار فرصة رحلتهم إلى الساحل مرة كل سنة أو سنتين؛ لنشر الإسلام بين أهالى هذه البلاد. وإذا كانت الحركة الإسلامية لأمراء الامارات السبع لم تلاقِ نجاحًا فى كسر قوة الهضبة، إلا أن حركة الدعوة الإسلامية قد لاقت نجاحًا عن طريق التجار والتجارة ، حيث ظفرت الدعوة الإسلامية بدخول عدد كبير فى مدة قصيرة، وقد اخفق رجال التبشير المسيحى إخفاقًا تامًا، على حين حقق الدعاة المسلمون نجاحًا مستمرًا، وشقوا طريقهم صوب الجنوب.

وكان تدفق النفوذ الإسلامى إلى بلاد الحبشة، مشجعًا للعناصر العربية التى كانت تعيش هناك ظاهرة أم مستخفية ، غير أن الملوك المسلمين فى الحبشة استطاعوا أن يستردوا نفوذهم، منذ عام ١٥٨٩م؛ فقد مكنت الاضطرابات التى أصابت مرافق البلاد، فى البقية الباقية من القرن السادس عشر، وفى القرن السابع عشر، والمنازعات التى قامت بين رجال الكنيسة، الإسلام من الاستقرار والبقاء .

لكن الأحباش تغلبوا على هذه الحركات كلها، وخرجوا من الصراع ظافرين، واستطاعوا فى عهد النجاشى زرع يعقوب (١٤٣٤ ، ١٤٦٨) أن يكونوا امبراطورية عظيمة، امتدت شمالاً حتى مصوع وسهول السودان، وسيطرت على القبائل البدوية من التجراى والبجه فى منطقة الساحل ووادى بركة، وضمت إليها أوقات وقطجارو ودوارو، وبالى– وفى المنطقة الخصبة الجنوب الغربى، سيطرت على إمارة هدبه السابقة الذكر، وبعض ممالك سدامة، ومنحت هذه الولايات استقلالها الذاتى، بل إن هذا النجاشى المتعصب عندما تمت له السيطرة الكاملة على أجزاء الإمبراطورية الواسعة، فإنه كان على الكنيسة أن تمارس نشاطها، فبثت رجالها فى القرى والبوادى والصحارى؛ من أجل القضاء على كل المعتقدات الإسلامية، التى كانت منتشرة بين الأثيوبيين ، إلا أن المسلمين ظلوا على إسلامهم، وإن كانوا قد تظاهروا بالتحول إلى المسيحية؛ وذلك حتى يتمكنوا من الانتظام فى سلك الأشراف، وكان ذلك من أهم الأسباب التى ادت إلى نجاح هذا الدين، بفضل ما أحرزه المسلمون من تفوق أدبى على أهالى الحبشية المسيحيين.

وقد أخذ الإسلام يشق طريقه إلى الحبشة، لا عن طريق الفتح وحده الذى قاد حركته أمراء الإمارات الإسلامية، ولكن الدعوة والتجارة كانتا من الأسباب القوية لتحقيق ذلك النجاح ، فقد أخذ التجار يفدون إلى هذه البلاد ويدخلون الناس فى الإسلام ، كما أخذ

دعاة العرب يفدون من مكة والمدينة واليمن، وأنحاء عديدة من الجزيرة العربية، حتى قيل إنه كان يفد منهم مئات سنوياً؛ لكى ينشروا الإسلام فى الحبشة، ويدعوا لدين الله الخالد ، حيث كانت أغلبية القادمين إلى الحبشة من الحضارمة ، إلا أن الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى الحبشة عن طريق التجارة، إنما يرجع إلى طائفة من التجار المصريين، الذين نشأوا فى مدينة قوص بصعيد مصر، وكانت تلك الطائفة التجارية تتألف من مهاجرين من أهل التكرور، وبعض الهنود والعرب، وقد اتخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكانمية .

لكن هناك آراء تذكر أن النجاشى زرع يعقوب (١٤٣١ - ١٤٦٨م) عندما ضم الولايات الإسلامية إلى حكمة، فإنه أبقى على كل ولاية عامل، يحكمها من قبله، ينحدر من البيت الإسلامى القديم، وقد كانت هذه الولايات وراثية؛ ولذا فقد احتفظ المسلمون بدينهم، وكانوا لايزالون نتشرون فى شوه وفى تجراى الشرقية، وطبّق الأحباش ما يحلو لهم من سياسات فى هذه الإمارات الإسلامية، التى خضعت لحكمهم، ففرضوا على كل أمير جزية سنوية ، وفرضوا عليهم شروطا، بها مهانة وامتهاناً للدين الإسلامى ورجاله . وهكذا فإن حركة الجهاد الإسلامى التى اشتعلت منذ القرن الثالث عشر الميلادى، حتى القرن السادس عشر قد فترت فى عهد السلاطين، الذين تولوا الحكم بعد ذلك، ومن ثم سالموا وجنحوا للسلم مع الحبشة، ريثما تكون هناك ظروف أخرى، تدعو وتساعد على الجهاد الإسلامى، وهكذا شهد القرن السادس عشر عقد هدنة بين سلاطين عدل المسلمين والأحباش المسيحيين؛ توطئة لكى تحين الفرصة النهائية للنجاشى؛ لكى ينقض على الإمارات الإسلامية ، ولكن عندما عاد سلاطين عدل إلى الراحة والاستقرار والهدوء، ومالوا إلى المسالمة وركنوا إلى التخاذل.. فإن الشعب المسلم الذى عرف روح الجهاد، لم يتخل عن سياسته التقليدية فى مقاومة الأحباش ومدافعتهم، ومن هنا كان تخاذل امراء عدل عن الجهاد، دافعاً للشعب بأن يتحمس، وأن يكون إيذاناً ببداية عهد جديد ، بل دور جديد للجهاد، تقوم به سلطنة أخرى من سلطنات الطراز الإسلامى .

فإذا كان سلاطين أوقات وعدل قد فضلوا الخلود للأمن والاستقرار والراحة، فإن على سلاطين هرر أن يبدأوا مرحلة الجهاد الإسلامى ، حيث إن جهاد هرر سوف يكون هو الجهاد الذى يأخذ صورة فعالة وقوية ومؤثرة فى مجرى الأحداث، فى تاريخ تلك المنطقة وعلى هذا فلابد من محاولة إلقاء الضوء على ذلك الدور، الذى تلعبه إمارة هرر فى حركة النضال الإسلامى؛ من أجل نشر راية الإسلام ورفعها خفاقة عاليه، فوق أديم الأرض الحبشية.

ويتميز هذا الدور بظواهر ثلاث: انتقال زمام حركة الجهاد الإسلامى من سلاطين عدل التقليديين الذين جنحوا للسلم، إلى طائفة جديدة من الأمراء تشربت حب الجهاد، واتخذت لقب الإمام، والعمل على نشر الإسلام على مدى واسع، وسيطر الفقهاء والدعاه ورجال الدين على حياة الناس، ودخول الشعوب البدوية سكان الصحراء ميدان معركة الجهاد الإسلامى والدعوة الإسلامية، بعد أن تم إسلامها فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى .

وهكذا كان تحمس الشعب المسلم الحبشى، مؤذنا ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد، وهو دور هرر أو دور الفتح العظيم .

وقد شهدت فترة الفتح العظيم انتقال السلطان إلى طائفة من رجال الدين، بعد أن علت كلمتهم وارتفع شأنهم فى الحقبة الأخيرة من تاريخ عدل؛ فقد ظهرت طائفة جديدة من الأمراء المسلمين، متخذة لقب إمام، متفرغة للحرب والجهاد؛ مما يدل على أنها تمثل حركة دينية عميقة الجذور، وأصبح هؤلاء النفر من الأمراء الأئمة يشرفون على حركة الجهاد وسياسة الغزو الإسلامى، ويجدون الأنصار من الاعفار والدنا قل والصوماليين؛ حيث كان هذا الطراز من الأمراء والأئمة اكثر ملاءمة لروح العصر، وأقدر على إلهاب شعور الجماهير ، هؤلاء الأئمة كانوا يمثلون الحركة الإسلامية الدافقة، وكانوا سلاطين عدل يمثلون السلطة الاسمية التى تستمد وجودها من ملك قديم، تؤيدهم طائفة من الارستقراطية، تهتم بالتجارة أكثر من اهتمامها بحركة الجهاد الإسلامى، والدعوة الإسلامية، وهؤلاء التجار نظرا لمصالحهم الشخصية وصلاتهم التجارية مع حكام الأحباش المسيحيين، كانوا يدفعون سلاطين المسلمين إلى مسالمة الأحباش فى التفاهم معهم .

ولكن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد رجحان كفة علماء ورجال الدين، وبروز دورهم على كل الأدوار الأخرى؛ بحيث استطاعوا التأثير القوى على مجرى الأحداث السياسية، وحركة الحياة اليومية فى ذلك المجتمع، ومن هنا تسلل هؤلاء الأئمة إلى المدن العدلية الكثيرة، وانتشروا فيها وفى القرى وكل البقاع، وتولى العلماء والفقهاء السلطة الفعلية فى هذه المدن، وكونوا إمارات محلية فى أرض السلطنة الممتدة من هرر وساحل البحر الأحمر... وهكذا أصبحت السلطة الفعلية فى كل منطقة بر سعيد الواسعة، فى يد هؤلاء العلماء؛ حيث تجمع حولهم القوم، وكثر العسكر الذين يرغبون فى الجهاد والدفاع عن ديار الإسلام .

وقد كان هذا بعداً جديداً، لم تشهده المنطقة فى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث بدأ

الطابع الدينى الخالص يسيطر على روح المجاهدين، ولا شك أن ذلك الطابع سوف يدفع حركة الجهاد خطوات فعالة إلى الأمام، ويرفع من دور الشعور الدينى، الذى تعمق فى نفوس الشعب، وكان الدافع والمحرك له دور رجال الدين وعلماء الإسلام ، وقد كان لهؤلاء الأئمة الدور الأكبر فى حركة الجهاد الإسلامى؛ إذ كان بيدهم إعلان الحرب عندما يريدون، فقد كانت بأيديهم القوة الحقيقية فى البلاد، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، وقد كانت سيطرة رجال الدين من العوامل الأساسية فى دفع حركة الجهاد الإسلامى، حيث شهد ختام القرن الخامس عشر الميلادى ظهور أمير هرر، الذى كان أحد هؤلاء الأئمة، وكان يسمى الأمير محفوظ؛ حيث اضطلع بحركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة فى عهد النجاشى ناعود، واستطاع أن يوجه ضربة قاصمة للأحباش، وتغلب عليهم وهزمهم هزيمة قاسية ونكراء، واستطاع أن يدمر كل ما وقعت عليه يديه، وأن يقتل أعداداً كبيرة من قواتهم العسكرية، وياسر عديداً من الأسرى ، وأصبح الإمام محفوظ، هو صاحب الأمر الفعلى فى البلاد بعد أن علت كلمته ، وقد قدم إليه الدعاة من بلاد العرب، من مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن وحضرموت والخليج، وأمدوه بالرجال والسلاح، وأعطوه راية خضراء ، بل إن دوره عظم، حتى أصبح له نفوذ قوى داخل العرش الحبشى؛ حيث كانت له اليد الطولى فى إقصاة الامبراطور الكسندر عن السلطة عام ١٤٩٥م، ومن ثم تم قتله بعد عزله.

وبينما هاتان القوتان تتطاحنان على أرض الحبشة؛ إذ بقوة جديدة تظهر فى الميدان الشرقى فى أفريقيا، عندما أخذت أفريقيا ترزح تحت نير الاستعمار الأوروبى، وقد كان للبرتغاليين قصب السبق فى هذا الميدان، فنجحوا فى الاستيلاء على أجزاء مختلفة فى الساحل الشرقى لأفريقيا، وامتد نفوذهم إلى الخليج العربى، واتخذوا من هرمز على هذا الخليج نقطة ارتكاز لهم، ثم عهد البرتغاليون بعد أن ثبتوا اقدامهم فى نقط على الساحل الأفريقى، إلى محاربة القوى الإسلامية بقدر المستطاع، ولقد كان الدافع الدينى من أهم الدوافع التى دفعتهم إلى التوسع فى هذا الاتجاه .

ومن جهة أخرى، وصلت إلى مصوع قوة برتغالية، تسهم فى الحرب ضد الدويلات الإسلامية المحيطة بهضبة الحبشة، التى عرفت فى التاريخ باسم ممالك الطراز، ومن هذه الدويلات الإسلامية دولة هرر، التى كانت تقود حركة الجهاد الإسلامى، فى ذلك الوقت أميرها محفوظ، والذى حقق عديداً من الانتصارات على الأحباش ، وكان أسطول البرتغاليين قد تقدم وفاجأ زيلع فى غياب الأمير محفوظ، وأغار عليها، ومن هنا لم تنجح حركة المجاهد محفوظ؛ ذلك لأن ملك الحبشة دواد تحالف مع البرتغاليين، وزحف على هرر بمساعدتهم

وقواتهم التى قدمت من الهند والبرتغال، وكانت كثيرة العدد، وهجم على هرر بقوة كبيرة من الأحباش والبرتغاليين، وانتصر على أميرها محفوظ، وقتله كما قتل عدد كبير من اتباعه، فأدى هذا إلى اضمحلال مدينة ودور هرر، وانكماشها حتى أصبحت مجرد قرية صغيرة يحكمها أمير .

ولما تولى حكم امارة هرر الأمير محمد جران الملقب بالاشول، واستتب له الأمر بها وحسم الأمور لصالحه، فإنه أخذ يشحذ همم العرب فى مكة المكرمة واليمن والأتراك، الذين كانوا قد سيطروا على اليمن ليمدوه بالسلاح والعتاد والرجال؛ لكى ينتقم من النجاشى داود، الذى هدم المساجد وأحرق المساجد والمصاحف، ودمر كل ما هو إسلامى أى العمل على القضاء على القوة المسيحية وزعامتها فى شخص النجاشى داود ، وقد تم له ذلك، فاستطاع محمد جران أن يستولى على شوا الامارة المخزومية القديمة عام ١٥٢٨م، وأن يدفع بالملك داود أمامه، وأن يهزمه حتى وصل داود إلى حدود سنار؛ حيث وقعت موقعة حاسمة على ضفاف النيل، قتل فيها عدد كبير من الأحباش، ومن بينهم النجاشى داود نفسه، لكن ذلك دفع الأحباش لفتح بلادهم أمام قدوم البرتغاليين، ومن هنا كانت دعوتهم على نطاق واسع ، وأسرعت البرتغال بإرسال قوة من رجالها، وأسطولها بقيادة دون ستبين Donstepner، ودون كريستفور Don Christopher، ونزلت القوة البرتغالية مدينة مصوع، وتقدم فريق منها بقيادة دون ستبين إلى الداخل؛ لكى يلتقى بقوات الإمام المجاهد محمد الجران، الذى كان قد نجح فى حشد قوات الأمراء من حوله، وحث الشعب على حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث أمدوه بألفى (٢٠٠ محارب)، كما امده الأتراك فى اليمن بالأسلحة والرجال والزاد، وبهذه القوة والسلاح أخذ المجاهد محمد الجران يواجه قوة البرتغاليين، وقد حاول محمد الجران أن يحسم الأمر مع القوة البرتغالية بالحسنى وبطريق التفاهم، ولكن دون جدوى. ولقد كانت النتيجة هزيمة قاسية وساحقة للبرتغاليين؛ إذ لم ينجو من هذه القوة إلا عشرة افراد فقط، فروا وهربوا الى الغابات، وكان منهم القائد دون كريستوفر الذى أسر، ولكن نهاية الأمير محمد الجران قد شهدت استشهاده فى ميدان المعركة، فيما بعد وهو يقاتل الأحباش، بعد أن تقدمت قواته غرباً ، وبعد أن حقق المسلمون هذا النصر فإنهم أحاطوا مدينة هرر بسور كبير، مازالت معالمه ظاهرة حتى اليوم .

ولم يقف تدخل الدول الأوربية فى هذا النضال بين الامارة الإسلامية والحبشة عند حد مساعدات البرتغاليين للأحباش ، لكن الأمر تعدى ذلك إلى مساعدات حربية واقتصادية

من دول أوربية أخرى للحبشة كفرنسا مثلاً، التى عقدت معها المعاهدات؛ لمعاونتها فى حربها ضد القوى الإسلامية؛ فقد ذكر الرحالة الفرنسى (وشيه)أنه قام بعقد معاهدة سياسية واقتصادية مع ملك الشوه بتفويض من لويس فيليب ملك فرنسا ، تعهدت فيها فرنسا بتقديم العون لملك شوا فى حروبه ضد المسلمين، بالإضافة للتبادل الاقتصادى بين البلدين .

على أن سلطنة هرر أخذت منذ ذلك الوقت تتكمش ، وبدأت حدودها تضيق حتى أن نفوذ السلاطين لم يكن يخرج من جدران مدينة هرر نفسها. وبعد أن كانت قبائل الجالا وكذا قبائل الصومال المنتشرة بين المدينة وساحل البحر الأحمر، خاضعة لنفوذ أمير هرر، أصبح الأمراء تحت رحمة هذه القبائل ، وقد وفد بعد ذلك إلى هرر بعض أشراف الجزيرة العربية، الذين كان لهم دور فى دفع حركة الجهاد الإسلامى، فى فترات تاريخية لاحقة ، حيث كانت فترة الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم صاحب الفتح العظيم، من أعظم وأهم فترات الجهاد الإسلامى فى شرق أفريقيا او الحبشة؛ ذلك لأن عصر ظهور المجاهد احمد ابن إبراهيم تمثل فترة نمو حركة الدعوة الإسلامية نمواً عظيماً، بعد أن رسخت أقدامها فى أرض الحبشة؛ لأن عصر ظهور المجاهد أحمد بن ابراهيم يمثل فترة نمو حركة الدعوة الإسلامية العلمية وتعمق المفاهيم الإسلاميةطوال اربعة قرون فى النضال والجهاد الإسلامى وكذلك نمو الحركة العلمية الإسلامية وتعمق المفاهيم الإسلامية فى نفسية الشعب بعد ظهور الأئمة، وقيامهم بدورهم القيادى الروحى والجهادى، وكذلك غلبة روح الفقهاء وجهادهم على حركة الحياة اليومية، وكذلك زيادة الصلة والعلاقات بين الإمارات الإسلامية الحبشية، وبين الأوطان الإسلامية الأخرى المجاورة.. كل هذه العوامل ساعدت على ظهور حركة الجهاد الإسلامى، فى عصر الامام أحمد بن إبراهيم، بصورة مغايره للحركات السابقة .

ذلك لأن هؤلاء الأئمة والفقهاء والدعاة ورجال الدين يعود إليهم الفضل، كل الفضل، فى إسلام قبائل البدو، وكذلك كسبهم إلى جانب الدعوة الإسلامية، وانضمام تلك القبائل إلى جانب الدعوة والحركة الإسلامية وتأييدها ، وكان هؤلاء الفقهاء يشدون من ازر الأئمة الأمراء ويدفعونهم دفعًا لمواصله الجهاد الإسلامى، ودفع راية الإسلام غرباً؛ حيث الهضبة الحبشية ، بل إنهم كانوا عدة الحركة الجهادية الإسلامية، التى انطلقت فى عهد الإمام أحمد بن إبراهيم لكى تحشد الجموع الإسلامية، حول ذلك المجاهد، الذى كان يقوم بغزو الأحباش النصارى؛ لأنهم كانوا فى زمان سعد الدين، وفى زمان محفوظ، ومن تولى بعدهم يقومون بغزو بلاد المسلمين، وخربوها مرات كثيرة، وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج، فلما ظهر أحمد بن ابراهيم الإمام منعهم من ذلك.

لقد كان الإمام أحمد بن ابراهيم يجلس لإقامة العدل، ويرفق بالمساكين، ويرحم الفقير ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان أهم من هذا كله أن القرن السادس عشر شهد دخول قبائل البدو فى حركة الجهاد الإسلامى ، وكان دخولها يشبه إلى حد كبير، ظهور تلك الحركة بصورة أكثر فعالية ومدفوعة بروح حماسية إسلامية لم يسبق لها نظير . فقد كانت هذه القبائل قوية شديدة المراس ، تريد أن تندفع صوب الغرب إلى المناطق الخصبة، وقد جاء اسلامهم معاصراً لحركة الجهاد والفتح، التى بدأها واستهلها الامام أحمد بن إبراهيم، الذى لقب بالقرين أو الأشول .

بل لعل بداية الجهاد الإسلامى بصورة فعالة انما تتأتى من اندفاع تلك القبائل البدوية صوب الغرب، نحو المناطق الخصبة، ومغادرة الأوطان القاحلة، ومن هنا كانت مشاركة تلك القبائل البدوية؛ لكى تقف من وراء الفتح تؤيده وتشد من أزره؛ لكى تندفع نحو الداخل لمحاولة الإجهاض على القوة الصليبية، التى أذاقتهم مرارة الغدر والإحباط، طوال أربعة قرون ماضية ، ومن هنا جاءت الأحداث والحوادث والشواهد التاريخية؛ لكى يكون الإمـــام الاشول ، أو القرين هو صاحب حركة الجهاد الإسلامى، فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى؛ حيث لم يكن عمره قد تجاوز إحدى وعشرين عاماً، ونراه يقود قوات عسكرية؛ حيث اختلف مع السلطان أبى بكر سلطان هرر، وتجددت الحرب بينهما؛ حيث قتل السلطان فى الحرب، وانفرد الإمام أحمد القرين بالأمر، بعد أن أقام عمرو بن، شقيق السلطان أبى بكر سلطاناً على البلاد، وفى ذلك الوقت غزا النصارى الأحباش بلاد المسلمين، وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجلجان صهر النجاشى، وتحته بطارقة كثيرة، فوصل إلى أطراف بلاد المسلمين، وخربها وهدم مساجدها وأحرق المصاحف، ونهب أموالهم وسبى أم أمير من أمراء المسلمين، اسمه الأمير ابو بكر فطين، فسار الامام أحمد بن إبراهيم إليهم بعسكره، والتقى الجمعان فى موضع يقال له الدير بكسر الدال، وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أمير، وعاد الإمام إلى بلده منصوراً، ثم توالت غزواته منها فغزا الفطجار، وغزا فيجى وانباريه فى داوراو، وغزا أوقات، واستولى الامام بعد ذلك على أنطوكية، ودخل كنيستها العظيمة ، ثم قصد الإمام بعد ذلك بلدة جنديلة، وهى بلدة مسلمة، يملكها ملك الحبشة فتلقاه أهلها بالفرح والسرور، وأعانوه بالذهب؛ لكى يواصل حركة انتصاراته وجهاده فى سبيل الإسلام، ولكن الإمام اشترى بهدية الدهب مائة سيف، وكان ذلك فى رجب عام ٩٣٥هـ .

ولقد ارتفع به المعاصرون له إلى مرتبة القداسة، ونسجوا حوله الأساطير، وأحاطوا ظهوره بالرؤى التى تمهد له وتبشر به، وفى ذلك روايات كثيرة (انظر عرب فقيه صـ١٣ - ١٤) وقد سموه أمام المسلمين ، وقد بدأ حياته بالانتساب إلى أسرة الإمام محفوظ؛ حيث تزوج ابنته دلنبرة، بنت الامير محفوظ، فكسب تأييد أنصاره، ومن هنا جمع الأنصار ورتب المجاهدين، ولما كثر اتباعه امتنع عن دفع الجزية، التى كان يدفعها لسلاطين الأحباش، ومن هنا انحدر الأحباش من الهضبة لقتال المسلمين عام ١٥٢٧م، وهم يعتقدون أنهم سيفرقون المسلمين كما تفرق المسلمون من قبل ، لكن الأحباش هزموا لأول مرة، منذ بداية الجهاد، وتم أسر خمسمائة أسير، وبدأ احمد القرين يتجاوز النطاق التقليدى القتال القديم، وهو الدفاع، ولكنه لم يكتف بالاغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة ، إنما اراد هذه المرة أن يكون الجهاد بصورة اكثر فعالية؛ حيث إنه كان قد صمم على ضرورة الوصول إلى قلب الهضبة الحبشية، وضرورة القضاء النهائى على قوة الاحباش، ووضع حد لسيطرتهم، وإقامة دولة إسلامية، وأن تكون الهضبة مقر الحكم، وتنتهى إلى الأبد القوة الصليبية من أرض الحبشة .

ولم يكن احد من المسلمين الذين يشاركونه حركة الجهاد، يتوقع ان يقدم الأمير الامام احمد الاشول على اقتحام ميدان الهضبة، والدخول لملك الحبشة فى عقر داره، فقالوا له إن ملك الحبشة معه قوة عظيمة، وخيله لا تحسب، وعنده من الدروع والخوذ والرجال والدرق، لا يحصيهم إلا الله تعالى، وأباؤك وأجدادك الأمير على والامير محفوظ صهرك. والجراد إبراهيم والسلاطين المتقدمة فى ملك بر سعد الدين، لم يكن أحد منهم يقصد ملك الحبشة إلى بلده وسكنه، ولكن يغزون إلى اطراف البلاد ويقيمون ويرجعون، وإذا تبعهم أحد من الكفرة قاتلوه، وأنت تريد قصد ملك الحبشة إلى وطنه، والآن لا تهلك المسلمين ، فقال الامام ، الجهاد فى سبيل الله هو ما ينصب على المسلمين ، فقالوا نحن ما مرادنا إلا الجهاد، ومن قتل منا صار إلى الجنة .

ثم أنه بعد أن كان قد عقد مجلسه هذا ، فإنه استنفر القبائل للجهاد، فكانت أول قبيلة لبت نداءه، قبيلة هيرمجدى مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين، فوصلوا «هرر» بعدتهم وخيلهم، وسر بهم الإمام سروراً عظيماً، ووصلت بعدهم قبيلة جرى، ومقدمهم منان بن عثمان بن خالد ، ثم وصلت بعدهم قبيلة زربه، ومقدمهم السلطان محمد ابن عم الإمام أحمد ابن

إبراهيم القرين، وبعد ذلك تهيأ الإمام لقصد بلاد الحبشة ، ومن جانب أخر اخذ ملك الحبشة يجمع مجموعة من قبائل التجرى ، وقبائل اقو وقبائل حجام، وأهل الفهقون، وأهل جن، وأهل قده وغيرهم، وانقلبت الحبشة بأسرها، وكان بطارقة التنجيرى أربعة وعشرين بطريقا، كل منهم تحت إمرته جيش عظيم ، وما زال ملك الحبشة يحشد الجيوش، ويستنفر القبائل لملاقاة الامام، وقد قيل إن جيش الحبشة كان ستة عشر ألف فارس، ونحو مائتى الف راكب لذلك طالت الوقائع فى شيزكوره؛ حيث انتصر الإمام فى أول رجب عام ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م، وأحرز الإمام نصراً حاسماً على الأحباش فى تلك الموقعة ، ثم بدأ غزو بلاد الحبشة نهائيا، واصبحت قصة انتصاره بشيزكوره مقدمة سلسلة من الانتصارات .

ولقد كان المسلمون فى تلك الموقعة لقلة عددهم، بالنسبة لجيش الأحباش الكثير العدد كما قال عرب فقيه، كالشامة البيضاء فى جلد الثور الاسود ، وقام الإمام يخطب فى المسلمين، ويحرضهم على الجهاد وقرأ سوره «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا بيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم» . صدق الله العظيم.

وقد ولى الأحباش الأدبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون، فقتل من بطارقهم البطريق روسيل من بطارقة التنجيرى وقد بلغ جملة من قتل من الأحباش عشرة الآف، ومن البطارقة مائة وأربعة عشر بطريقا .

وبعد هذه المعركة والنصر الهائل، أراد الإمام احمد القرين، أن يسير والمسلمون إلى قلب الحبشة، ويجهز على الباقى من جيشها، فشكا له المسلمون ما حل بهم من الجهد، فعاد الإمام إلى بلدته، ولقد وقع المسلمون فى خطأ جسيم؛ لعدم متابعتهم الغزو؛ حيث إن قوات الحبشة كانت مشتتة، وقتل منها أكثر من عشرة الاف، ولم تكن تستطيع ان تصمد بعد ذلك النصر الذى احرزه المسلمون، ولكن ما وقع فيه المسلمون كانت له نتائج سيئة فى نهاية حركة الجهاد الإسلامى، وتدخل القوى البرتغالية المسيحية المتعصبة .

وفى عام ١٥٣١م دخل الإمام مدينة دوارو وشوه وامحره ولاستا ، وفى عام ١٥٣٣م استعاد الإمارات القديمة بالى وهدبه وسدامة، وبات هذا الفتح لايمكن مقاومته؛ نظراً لأن الإمام جمع جموعة، وقصد بلاد الحبشة هذه، وكانت مع الإمام مدافع حديثة، أمر بأن تضرب بها قوات الحبشة، فهزموهم شر هزيمة، وكان ذلك فى الخامس من رجب عام ٩٧٧ / ١٥٣٣م .

وفى عام ١٥٣٥م سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزا الإمام أحمد إقليم تجراى للمرة الأولى، وتقدمت قواته فى كل سبيل فى الساحل، وفى السهول وفى الشمال الغربى متصلا بسلطنات نوبية يحكمها البجاة، وكانت تخضع للنجاشى، ومات ملك الحبشة مقهوراً طريداً من هذه الانتصارات الإسلامية، وبينما حركة الجهاد الإسلامى تمضى فى طريقها المرسوم لتحقيق الهدف الاسمى فى غاية الجهاد- وهو تكوين دولة اسلامية، تكون الهضبة مقرها حيث يصعد السهل إلى الهضبة، لا أن تهبط الهضبة لتقضى على قوة السهل -كان الخطر الصليبى المتعصب المسيحى البرتغالى، يمد يد العون بقوة وحزم؛ لكى يقف وراء الحبشة المسيحية التى جاءت من أوروبا يبحث عنها وعن كاهنها، الذى كانوا يطلقون عليه القس يوحنا .

وعلى الجانب الآخر، ظهرت فى ذلك المجال قوة اسلامية فتية، هى قوة العثمانيين الأتراك، بعد أن سيطروا على مصر وبدأوا يسيطرون على البحر الأحمر، واستولوا على عدد كبير من المراكز التجارية والعسكرية، وكان ظهور العثمانيين فى هذا الوقت بالذات؛ مما أنقذ العالم الإسلامى من خطر محدق؛ فقد كان البرتغاليون يطمعون بالاتفاق مع الاحباش فى ضرب مصر من الظهر، عن طريق السويس، ومهاجمة البلاد المقدسة فى الحجاز، وتحقيق الحلم الصليبى القديم .

لذا فإنه يمكن القول أن القرن السادس عشر الميلادى قد شهد بعداً دوليًا جديداً؛ فقد ظهرت فى الميدان قوتان كبيرتان: احداهما مسلمة وهى الأتراك العثمانيين، والأخرى مسيحية هىَ البرتغال، وانضم الأتراك إلى الإمارة الإسلامية الحبشية بقيادة أحمد بن إبراهيم، وانضم البرتغاليون إلى الأحباش، وقد استطاع المجاهد أحمد بن ابراهيم بمساعدة الأتراك أن يحقق كثيراً من الانتصارات على الأحباش، وأن يضم كثيراً من أراضيهم، بعد أن امتد الغزو الإسلامى فى أرض الحبشة منذ عام ١٥٢٨ - ١٥٤٣م؛ حيث انضم إلى جيشه الظافر، عدد كبير من زعماء الأحباش وأصبحوا مسلمين ، بعد أن أعلن بعض قواد الأحباش صراحة أنه من الخير ان يخضعوا للحاكم المسلم، من أن يظلوا على محالفة البرتغاليين، الذين تدخلوا فى كل شئون البلاد .

ولقد اندفع الأتراك بشدة فى مساعدة المجاهد أحمد بن إبراهيم؛ حيث أدركوا مدى البعد الحقيقى لهذا الخطر الصليبى المتحالف مع الأحباش، وارتاعوا للسفارات البرتغالية والقوات والأسلحة البرتغالية أيضاً التى توافدت على بلاد الحبشة، فما كان من الأتراك إلا أن سيطروا على سواكن وزيلع، واتصلوا بالمسلمين فى مصوع .

وبعد أن سيطر المسلمون عام ١٥٣٠م على أرض جديدة وواسعة فى الحبشة، ولم تعد هناك إلا رقعة ضيقة يحكمها نجاشى الحبشة، وخرجت الأقاليم عن طاعته، ودخلت فى طاعة الإمام أحمد القرين، وبعد أن استشار البطارقة والحاشية، فما كان بد من الاتصال بالبرتغاليين فاستنجد بهم فى العام، ١٥٣٥م نفسه، حيث أرسل إلى ملك البرتغال، يلتمس العون والمساعدة العسكرية والمساندة الحربية، فأرسل له ملك البرتغال من توه قوة نجدة عسكرية كبيرة، قوامها أربعمائة جندى، وعدد من المدافع فوصلوا الحبشة عام ١٥٤١م .

والتقى المجاهدون بزعامة أحمد بن إبراهيم الملقب بالأشول أو القرين والبرتغاليين فى المنطقة الواقعة بين اميا الاجى وبحيرة الشانجى، وذلك فى عام ١٥٤٢م، وقد جرح القرين ونجا من الأسر، وأوى احمد القرين إلى جبل زيل المطل على بلاد الدناقل لتنظيم قواته .

وبعد أن تعافى الإمام من مرضه فإنه استنجد بالباشا التركى، والى الاتراك فى زبيد باليمن، فأرسل اليه الوالى التركى تسعمائة رجل من حملة البنادق، وعشرة مدافع، وعاود الإمام أحمد الهجوم، والتقى بالبرتغاليين فى وادى افلا؛ حيث استطاع أن ينتصر على البرتغاليين انتصاراً ساحقًا، وهزم قواتهم، وقضى على أغلبها، ولقد كانت حركة الجهاد الإسلامى التى يقودها الإمام أحمد القرين دافعاً قويًا لأن يشاركه فى الجهاد أقوام من بلاد شتى العرب والمغاربة والمصريين، وكان الإمام قد حقق انتصارات عظيمة بعد فتحه لبلاد دوارو، بالى ، هدبه ، جنر ، وج ، ورب ، فطبحار وأوقات وما حولها، فإنه لم يبق خارجاً عن طاعته إلا قدر ثلث أرض الحبشة، واستولى المسلمون على معظم الأراضى الحبشية .

ولما أحس الإمام أحمد القرين بقوته بعد انتصاره الرائع على قوات البرتغاليين، وأحس أن الامر قد استتب له ، فإنه أوجس خيفة من الأتراك، وبدأ يتوقع غدر الأتراك؛ لأن الأتراك قبل ذلك كانوا قد استولوا على ميناء زيلع من سلطان عدل عام ١٥٢٢م، نظير مساعدتهم له، ولما ضعف أحمد القرين إمام الأحباش والبرتغاليين، مد الأتراك نفوذهم إلى الساحل، واستولوا على كل موانيه ، فما كان من أحمد بن إبراهيم إلا أن يعيد النجدة التركية إلى اليمن، وللحقيقة التاريخية فإن الأتراك أدوا خدمات جليلة لتلك المنطقة، وإن كان وصولهم إلى تلك المناطق قد جاء متأخراً إلا أن وصولهم إلى المنافذ على سواحل الشرقى الأفريقى كان يحتم عليهم القيام بمجهودات كثيرة، خاصة بعد أن تحقق لهم شىء من النجاح، بإخضاعهم لبعض الموانى الآسيوية والأفريقية للبحر الأحمر كجدة وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن ، ومن هنا كان تطلع القوى الإسلامية فى الحبشة إلى الأتراك العثمانيين،

الذين يرغبون بدورهم فى السيطرة على الحبشة لتقديرهم أنهم، إذا تمكنوا من إقامة دولة إسلامية فى الحبشة، سيؤدى ذلك إلى تأكيد سيطرتهم على الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى، وتحقيقاً لهذا الهدف اتصل الأتراك العثمانيون بمسلمى الحبشة، الذين وحدت القضية الدينية بينهم ، ووجدوا فى الإمام أحمد القرين الملقب بالأشول، القوة المحركة التى يستطيعون من ورائها تحقيق أهدافهم، فأمدوه بالسلاح والرجال والذخيرة، كما اتخذوا من تدينه وتقواه وسيلة لإظهاره، أمام مسلمى تلك البلاد بمظهر القائد الدينى، الذى يجمعها ويوجهها ضد الأحباش، واستطاع أحمد بن إبراهيم أن يجمع كلمة المسلمين، ويتولى أمورهم حتى لقبوه بالأمام الغازى، وصاحب الفتح، وذلك بعد أن حمل على الحبشة تلك الحملات والغزوات السابق الإشارة إليها، وذلك بمؤازرة الأتراك له، وتوغل فى الأقاليم الحبشية؛ حتى وصل إلى الأقاليم الشمالية من تيجرى، وبلغت حروبه مع الحبشة اقصى درجة من الحماسة والاقدام خاصة أن المسلمين اعتبروها جهاداً مقدساً، وأخذوا يحاربون فيها حرب المستميت للدفاع عن الدين، حتى لقد وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بحيرة تانا على النيل الأزرق، وضمت إليه بلاد اوقات ، هدبه، بالى، دوارو ، طحبار جنر ، وكذلك استيلاؤه على بلاد التيجرى .

ولقد كان بفضل هذه الانتصارات وشتى الحروب المتواصلة ضد الامبراطور الحبشى لينادنقل، أن التف حوله كثير من المسلمين ومنهم الصوماليين ، وأخذت الرقعة التى يحكمها المسلمون فى الاتساع؛ حتى نجح الإمام- بفضل النجدات التركية التى كانت تصل إليه، من القواعد التركية فى اليمن- من هزيمة الإمبراطور لينادنقل، الذى اضطر إلى الفرار أمام زحف الإمام وقواته الكاسح، من بلد إلى بلد، وضعفت سلطة الإمبراطور، وأصبحت ضئيلة للغاية، لا سيما بعد أن أصبح الإمام أحمد يتصرف فى الحبشة كلها كتصرف الملك المستقل، صاحب الامر والنهى فى البلاد، كما أخذ يرسل من قبله الولاة إلى جميع أقاليم الحبشة لفتحها وإخضاع أهلها، وجمع الأموال والزكاة، واستقر فى بلده دمبيا، التى اتخذها عاصمة لحكمه فى عام ١٥٤١م، وقد استمرت غزوات الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول، ما يقرب من خمسة عشر عاما (١٥٢٨ - ١٥٤٣)، وقدر عدد رجاله بأكثر من عشرة آلاف مقاتل .

وكان لهذه الغزوات أثر كبير فى نشر الاسلام فى الحبشة، وقد أخذت قوته تتعاظم؛ خاصة بعد انضمام الأتراك إليه وشريف مكة المكرمة ، الأمر الذى مكنه من غزو قبائل الجالا، وسائر القبائل الأخرى فى شوا وغندار واكسوم .

ولعل تلك الانتصارات كانت الدافع الأساسى؛ لكى يرسل الإمبراطور أقلاديوس، الذى خلق الإمبراطور لينادنقل فى الحكم (١٥٤٠ - ١٥٥٨م)، إلى إرساله وفداً إلى لشبونة، عاصمة البرتغال؛ لطلب النجدة العسكرية بالرجال والسلاح والعتاد؛ نظراً لحرج موقفه أمام انتصارات الإمام أحمد الاشول، المتكررة والسيطرة على معظم أنحاء الحبشة ، وقد وصف المندوب لملك البرتغال حرج مركز الإمبراطور أمام شعبه ورعيته، وعلى أثر ذلك وجه الملك تعليمات إلى نائبه فى الهند، بإرسال أسطول برتغالى لمقاتلة المسلمين، ومساندة إمبراطور الحبشة، وكان وصول الإمدادات البرتغالية للأحباش المسيحيين مفاجأة لمسلمى الحبشة، الذين لم يستعدوا لقتال هذه القوات المسلحة، والمدربة تدريباً حديثاً، والمسلحة بأحدث أسلحة العصر ، ولقد كان لوصول قوات البرتغال بهذه الصورة المتكررة والفعالة أثر فى هزيمة الإمام وقواته؛ إذ أن البرتغاليين هم الذين كانوا يقودون القوات، ويتصدون للدفاع عن الحبشة، ومن ذلك فإن قوات برتغالية تزيد عن ألف وخمسمائة جندى برتغالى، تقدمت فى فبراير عام ١٥٤٣م، وهاجمت جيوش الإمام واخترقت فصيلة منها بقيادة بدور ليونى الصفوف إلى حيث كان يوجد الإمام، وأطلقت عليه الرصاص، فجرح جرحاً بالغاً، ولما أيقن من الهزيمة انسحب إلى الغابة وحيداً، وهو يقطر دماً فتبعه القائد البرتغالى حتى رأه يسقط ميتا، ومن ثم مثل بجثته، وذهب باجزاء منها إلى الامبراطور قلاديوس، الذى انهى البرتغاليون له المقاومة الإسلامية بعد أن كاد يفقد عرشه، وينهى إلى الوجود المسيحية من أرض أفريقيا قبل أن تنتهى من ارض الحبشة، ولكن هذا قدر الله ولا راد لقضائه وقدره، والبلاء يعلم المسلمين الصبر على الشدائد والقدرة على مواجهة المكروه وتحمل الشدائد .

ولقد كانت تلك المعركة الفاصلة عند ويتاداجا قرب بحيرة تانا، ومات الإمام، وتفرقت جموعه، ونجت الحبشة من كارثة محققة، وهكذا قضى على ثورة الإمام احمد بن إبراهيم، بفعل مساندة البرتغال، التى تدفقت على الحبشة من مراكز البرتغاليين، فى سواحل شرق افريقية والهند والبرتغال نفسها ، والذين أمدوا الأحباش بالقوات المدربة، أحدث تدريب، والأسلحة الحديثة التى هى أحدث ما وصل اليه العصر من مدافع وبنادق وجنود مدربين على استخدامها، وخرج العثمانيون من هذه المحاولة مدحورين، فاكتفوا بذلك بالإشراف على سواحل البحر الأحمر من سلسلة الموانىء التى استولوا عليها. حقيقة حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على مصوع العودة للتدخل، وذلك بشد أزر المسلمين فى المقاطعة التى صارت تعرف فيما بعد باسم أرتيريا؛ مما اثار الأحباش، وأدى ذلك إلى حروب بينهم وبين العثمانيين فى عام ١٥٧٨م، كان النصر فيها للحبشة بقيادة النجاشى ملاك صاجاد، الذى نجح فى القضاء على النشاط العثمانى فى بلاده.

وهكذا كان الإسلام ينتشر فى ركاب هذه الحركة الجهادية، التى قادها الإمام أحمد القرين ، حيث إن غالبية سكان الهضبة اعتنقوا الدين الإسلامى عن طريق الاقتناع والرضا والمحبة وليس عن الرهبة ، والمؤرخون الاحباش يؤيدون هذه الأقوال فيذكرون أنه لم يحتفظ بدينه اكثر من فرد واحد من كل عشرة ، فمن استسلم وأحب الاحتفاظ بدينه، فرضت عليه الجزية، ومن اختار المقاومة قوتل ، وكان الفقهاء يسيرون فى ركاب الفتح يحرضون على الجهاد، ويفقهون الناس امور الدين الإسلامى، ويعلمونهم مبادىء الدين الإسلامى .

واذا كانت حركة الجهاد الذى قادها الإمام لم تحقق أهدافها النهائية فى القضاء على مملكة الحبشة نهائيا فى الحبشة، إلا أنها أثبتت أن النظام الحبشى الإقطاعى نظام واهٍ، وأنه لولا تدخل القوات البرتغالية لم قدر لهذا النظام ان يعيش ساعة بعد ذلك ، كما أن تلك الحرب الدائرة بين الطرفين، أثبتت أنه من المستطاع أن يتمكن البدو سكان السهول من فتح هذه الهضبة، إذا أتحدت صفوفهم، وألفت بين قلوبهم أهدافٌ سامية، وسرت فى نفوسهم روح الجهاد الإسلامى الحقيقية ، وهذه الحركة التى قادها الإمام، تدل على مدى عمق الشعور الإسلامى فى نفوس سكان، وأهل شرق أفريقيا وتمسكهم بالإسلام إلى أبعد الحدود، فقد دأبوا على الجهاد، وأصروا عليه طيلة ستة قرون .

ولقد كانت خسائر الاحباش فى الرجال تفوق الوصف، وإذا كان الأحباش الذين أسلموا كرهاً قد ارتدوا إلى دينهم القديم ودين النصرانية، تحت إرهاب السيف الحبشى ، إلا أنه ليس هناك شك أنهم تأثروا بالعقيدة الإسلامية وتعاليمها، طوال الخمسة عشر عاماً، التى قضاها الإمام (١٥٢٨ - ١٥٤٣م). لكن هذه الحركة الإسلامية التى ارتفع لواؤها فى الحبشة المسلمة لم تمت بموت الامام احمد ، بل استمرت فترة طويلة من بعده ، فقد حاول الوزير عباس احد رجال الإمام ان يكون إمارة من مقاطعات (دواو ، قطجار ، بالى) ، لكنه هزم عام ١٥٤٥م، وانتهى دوره من مسرح الأحداث فى المنطقة ، ولكن هرر انتقضت مرة أخرى، والتفت حول أرملة الامام أحمد بن إبراهيم، ابنة الإمام محفوظ صاحب الانتصارات العظيمة، وذلك للأخذ بالثأر، واجتمعت قوات السلطان عمر دين والسلطان على الجراد بن الإمام أحمد، وغزت دوارو، ولكنها هزمت وأسر زعماؤها .

ويبدو أن الأحباش وملكهم لم يعد يكترثون كثيرا بالمسلمين، بعد مصرع الامام أحمد، ولم يعد يخشون أحداً أما عن مسلمى الحبشة فقد تزعمهم بعد وفاة أرملة الإمام أحمد ابن ابراهيم ، قريب له يدعى الأمير (نور الدين بن مجاهد) ؛ حيث إن المسلمين، لم يهدأ لهم

بال ، ومن ثم بدأت محاولة جديدة، بقيادة نور بين الوزير مجاهد بن أخت الإمام احمد القرين؛ حيث تم انتخابه إمامًا للمسلمين عام (٩٥٩هـ / ١٥٥١ - ١٥٥٢م)، وقد قاد الأمير حركة جهاد ثانية، أطلق عليها المؤرخون الفتح الثانى، بل أسموه صاحب الفتح الإسلامى الثانى؛ حيث نشبت بينه وبين الامبراطور قلاديوس معركة، استطاع الإمام نور الدين ان يقتله فى هذه المعركة التى نشبت بينهما، وقد سماه المسلمون بصاحب الفتح الثانى على أنه انتهى بموت الأمير نور الدين بين مجاهد بحد سلطنة هرر الإسلامية، واخذ المسلمون يعانون من شدة ضغط الأحباش عليهم .

وقامت هرر قومة اخرى عام ١٥٥٩م، وتزعم حركة الجهاد فيها الأمير نور أمير هرر، بعد أن تحالف فى حركة الجهاد الثانية مع سلطان عدل الأسمى، الذى خلق السلطان عمر دين، واسمه على، وقاما بغزو قطجار، واتخذ الإمام نور الدين لقب أمير المؤمنين ، غير أن هذه الجهود كلها انتهت بالفشل والقتل، فى عهد الإمبراطور سرصادنجل .

وانتهت هرر كقوة سياسية، ذات شأن فى الوقت، الذى استطاع فيه الأحباش أن يبعدوا هذا الخطر الإسلامى، وأن يخلصوا من التهديد العثمانى؛ ذلك لأن العثمانيين فى عام ١٥٧٧م استولوا على مصوع دار كيكو، وتقدموا نحو سهول أرتيريا، وأنشأوا حصنًا فى دباروا، وأخذ القائد العثمانى يمد نفوذ العثمانيين فى هذه الجهات، ولكن زعماء الولايات الشمالية المسيحية هزموا القوات العثمانية، وحالوا بينها وبين احتلال جزيرة بورى ، ثم انتهز الأحباش فرصة انشغال القائد العثمانى، واستولوا على حصن دبارو، واضطر العثمانيون إلى التراجع نحو سواكن ومصوع واركيكو ، ولما انهى الاحباش المقاومة فى هرر ، استداروا للعثمانيين وحلفائهم من الأحباش؛ للثأر من المسلمين وهزموهم ، وقتل الباشا العثمانى فى هذه المعركة، وانتهت هذه المعركة بعقد الهدنة عام ١٥٨٩م .

على أن الظروف التى مرت بها الحبشة كانت مساعدة- إلى حد كبير- على عودة الازدهار للقوى الإسلامية ، ذلك أن البرتغال لم تلبث أن أخذت تطالب الحبشة بثمن مساعدتها ضد المسلمين، بأن تعلن انضمامها للكنيسة الكاثوليكية، بعد أن تقطع صلتها بالكنيسة الارثوذكسية ، ولكن لم يكن بد من مقابلة هذا التحدى لعقيدتهم، إلا باللجوء إلى الكنيسة المصرية التى أمدتهم بالعون الدينى والأدبى والكتب الدينية، ومع هذا.. فإن الإمبراطور الحبشى سوسنيوس قد أدرك أن بلاده بعد كل هذه الانتصارات العسكرية على الإمام احمد القرين، والذين ساروا على خطاه، فإن الحبشة أصبحت محاطة بدول إسلامية،

تعزلها عن العالم الخارجي، فتركيا تقف على الساحل الشرقي لأفريقيا وتسد عليها المنافذ ، كما أن مصر رغم العلاقات الروحية التقليدية لوجود الكنيسة الأم بها، فإنها لا تستطع أن تقدم لها شيئاً بعد أن أصبحت ولاية عثمانية، وبعد أن قامت الحبشة بتصفية الامارات الإسلامية، التى كانت مصر دائما تدافع عن وجودها، والمحافظة على وضعها الراهن، وعقد هدنة بينها وبين الحبشة .

ومن هنا لم يعد امامه إلا البرتغاليين، الذين ساعدوه فى كسر قوة الأحباش المسلمين والاتراك الذين ساعدوهم ، فلم يكن أمام سوسنيوس إلا اعتناق المذهب الكاثوليكى مذهب البرتغال، وقطع كل الروابط الدينية والثقافية بين الحبشة والكنيسة المصرية .

وعندما تولى الإمبراطور فاسيلادوس، وجد الحبشة منقسمة على نفسها بين الكاثوليكية والارثوذكسية ، ومن هنا لم يكن أمامه إلا اليمن، التى كانت أقرب الدول إلى الحبشة فضلاً عن العلاقات القديمة ، بالإضافة إلى أن اليمن استطاعت عام ١٦٣٥م، أن تطرد القوات التركية من بلادها، ولم يكن هناك مدخل أمام الحبشة إلا صداقة اليمن، ولذلك أرسل الإمبراطور فاسيلادوس رسالة إلى إمام اليمن، يبلغه رغبته فى تفهم أمور الدين الإسلامى، لعل الله يهديه إلى اعتناق دين الإسلام.

فما كان من إمام اليمن إلا أن لبى دعوته وطلبه فوراً، وقام من توه بإرسال بعثة إسلامية تضم بعض كبار رجال الدين الإسلامى والفقهاء، وذلك لكى نفقهه فى أمور الدين الإسلامى .

وقد رافق هذه البعثة الإسلامية، أحد رجال الدين اليمنى، ويدعى الشيخ أحمد الحيمي؛ حيث سجل أخبار رحلته التى قام بها إلى الحبشة، وقد اطلق الحيمى على ما دونه فى رحلته هذا كتاب مسماه (حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر)، وقد قام الدكتور مراد كامل، أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة سابقاً، بنشر هذه الرحلة، بعد أن عثر على نسخة منها فى المكتبة التيمورية المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، إلى جانب انه عثر على نسخة أخرى فى اليمن، قام بمراجعتها على النسخة المحفوظة فى مكتبة لندن .

ويتحدث أحمد الحيمى عن هذه الرحلة قائلاً إنه قام برحلته الى الحبشة، وذلك بعد أن قام الإمبراطور الحبشى فاسيلادوس بإرسال رسول إلى امام اليمن المؤيد بالله، ثم من بعده أرسل رسولا آخر إلى الامام المتوكل على الله ، وطالبا عن أن يرسل إليه الإمام شخصاً يثق

فيه تمام الثقة، وذلك للإفضاء اليه بأمر مهم يتعلق به شخصيا ، ولقد صحب الحيمى هذه البعثة الدينية التى قام بإرسالها إمام اليمن ، ولما أدركت البعثة أن الإمبراطور فاسيلادوس لم يكن صادق النية على الإطلاق فيما أرسل من آجله إلى إمام اليمن، فى رغبته فى اعتناق الإسلام، واتخاده الإسلام دين الدولة الرسمى، ولكنه كان يريد إصلاح ذات البين وقيام علاقات طيبة بين الحبشة واليمن وإصلاح ما عكرته الأيام ، بعد أن شاهد أن كل الطرق التى تصله بالعالم الخارجى قد سدت فى وجهه، ومن هنا لم يجد إلا اليمن منفذاً له للعالم الخارجى، لاسيما أن العلاقات بين اليمن والحبشة علاقات وثيقة وقديمة، عبر التاريخ والعصور.

وقد عاد الحيمى إلى اليمن عندما رأى رأى العين كل ما وقعت عليه عينيه من مشاهد، دونها فى كتابه الذى يصف فيه أحوال الحبشة ، حيث وصف كل شىء وصفاً دقيقاً، ووصفه للقبائل والنظم التى تحكم بها الحبشة، ومما تجدر إليه الإشارة أن القرن الثامن عشر الميلادى قد شهد تحولا بالغاً فى سير الحركة الإسلامية، فى بلاد الحبشة؛ اذ إن الإسلام اخذ يتدعم فى الحبشة، فى ذلك القرن، وذلك عندما اعتنقته شعوب كثيرة من الشعوب الوثنية، التى لم تكن قد وصلت اليها، ومن تلك القبائل التى اعتنقت الإسلام عقيدة لها شعوب الجالا ، حيث إنه فى عام ١٧٨٠م، استولت قبيلة جالا وقبيلة ولوا وايجو على نيجمدار، وعلى قسم من بلاد امجرة؛ حتى أصبح زعيم إقليم ابجو من المسلمين، واستطاع ذلك الزعيم المسلم القوى أن يملى إرادته على نجاشى الحبشة ، ثم أن الإسلام شهد حركة ازدهار واسعة أيضاً فى الحبشة فى القرن التاسع عشر الميلادى، عندما انتشر النفوذ المصرى على سواحل البحر الأحمر، وقد اشار كثير من الأوروبيين إلى أن الإسلام يتقدم بخطوات سريعة بين قبائل الصومال، وهكذا كان الوجود المصرى من الأسباب القوية إلى تحول القبائل إلى الإسلام .

إذ إنه كان من أثر الفتح المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، امتداد النفوذ المصرى إلى السودان ومصوع وزيلع وهرر وهضبة أرتيريا الشمالية، أن ساعد كل هذا على الضغط على الحبشة غربا وشمالا؛ مما كان من شأنه أن يساعد على ازدهار القوى الإسلامية فى الحبشة .

ولقد ترتب على فشل الحملة المصرية على الحبشة، هجرة كثير من المسلمين من الأقاليم الحبشية ، على أنه رغم قوة الإمبراطور منليك وإخضاعه لجميع الممالك الإسلامية، إلا أن سلطنة جما الإسلامية قد بقيت على الرغم من ذلك، محتفظة بنشاطها الإسلامى وازدهارها الثقافى؛ حيث أسلم أهلها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بفضل بعض

التجار المسلمين الذين وفدوا عليها ، فاعتنق كثير من قبائل جما الإسلام؛ خاصة بعد أن قدم اليها كثير من العلماء والفقهاء ورجال الدين، الذين كانوا فى زى التجار، وذلك لإرشاد أهلها إلى أمور الدين الإسلامى الصحيح. وقد تولى حكمها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧٨م) السلطان محمود بن داود، الذى عرف باسم السلطان أبى جفار، إلا أنه رغم أن تلك السلطنة قد حافظت على وجودها، إلا أن الامبراطور منليك فوض استقلالها بما كانت تتملكه نفسه من نزعة صليبية، ضد كل وجود إسلامى سياسى أو دينى، فقام فى عام (١٨٨١م) بالاستيلاء عليها، بعد أن أدخلها تحت حمايته، تاركاً لها استقلالها الداخلى كباقى المقاطعات المسيحية فى الحبشة، وقد أبرم منليك معاهدة مع سلطان البلاد، يتم بموجبها أن تظل هذه السلطنة، يتوارث الحكم فيها سلالة أبي جفار، وعليها أن تدفع جزية سنوية إلى حكومة أديس أبابا والا تتصرف خارجيا فى أية علاقات، ولكن لها علاقات داخلية مع غيرها من المقاطعات الحبشية المسيحية الأخرى .

لكن على جانب آخر.. فإن حكام الحبشة كانوا يزيدون فى مقدار الجزية السنوية، كيفما يحلو لهم، وذلك على أمل إضعاف تلك السلطنة الإسلامية .

إلا أنه رغم كل انواع القسوة والمعاملة الحبشية غير الإنسانية، فإن المسلمين أخذوا يتغلغلون فى كثير من أقاليم الحبشة؛ حيث الجنوب والشرق ، كما تغلغلت جماعات اسلامية كبيرة فى الغرب، كما استقرت جماعات إسلامية أخرى مهاجرة إلى الغرب من اديس أبابا، وكذلك فى أقاليم شوه وامجرة وتجرى وهرر واجادين ، وقد وصلت نسبة المسلمين فى الحبشة فى بداية القرن الحالى إلى حوالى ٤٠ ٪ من مجموع السكان، أما حاليا فى الربع الأخير من القرن العشرين، فإنه يذكر أن المسلمين يبلغون حوالى ٦٠ ٪ من مجموع السكان.

وتسود اللغة العربية غالبية المسلمين فى الحبشة، وقد حافظوا عليها محافظة شديدة؛ باعتبارها لغة القرآن الكريم، وقد شهد كثير من الرحالة الأجانب، الذين جابوا بلاد الحبشة، بأن المسلمين فى تلك البلاد، ذوو نشاط بالغ، وعلى جانب كبير من الذكاء، ولهم التفوق على غيرهم من باقى سكان الحبشة .

وقد استطاع المسلمون فى الحبشة أن يجعلوا بينهم وبين الممالك الإسلامية المجاورة لهم، روابط ثقافية واقتصادية وثيقة كمصر، بلد الجامع الأزهر، قبلة العلم والدين فى العالم الإسلامى ، حيث أمة طلاب العالم الإسلامى أجمع؛ لأخذ العلم والمعرفة عن طريقه، وكان

لأبناء الحبشة المسلمين أروقة مشهورة، منها رواق الجيرت ورواق الزيالعة ، وقد تخرج من أبناء الحبشة عديدون من الجامع الأزهر، والذين تلقوا العلم فى الأزهر؛ حيث عادوا إلى بلادهم، فإنهم كانوا يمارسون أدارهم فى العلم والدين والفقه والقيادة الدينية والسياسية ، كذلك ارتبط مسلمو الحبشة بالسودان الشرقى بروابط ثقافية واقتصادية .

ولقد هاجر كثير من أبناء الحبشة إلى السودان للدراسة والعلم والتفقه فى عديد من المدارس الإسلامية، المنتشرة فى بلاد السودان ، كما ارتبط مسلمو الحبشة بروابط وثيقة منذ قديم الزمن مع اليمن؛ بسبب الجوار والتجارة والمعاملات، كما نشأت علاقات وثيقة بين مسلمى الحبشة والأماكن المقدسة فى الحجاز ، إذ كان كثير من الأحباش يؤدون فريضة الحج سنويا، ومن هنا كانوا يذهبون إلى الأراضى الحجازية؛ لأداء فريضة الحج كل عام.

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادى، وبداية القرن العشرين ازدهار القوى الإسلامية بفضل الدعوة، التى تزعمتها الدولة العثمانية، فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٨)، وهى دعوة الجامعة الإسلامية؛ حيث أوفد السلطان عبد الحميد الثانى سلطان تركيا بعثة إسلامية إلى الحبشة فى عهد الإمبراطور منليك؛ لتعرف أحوال المسلمين، وقد عرف الإمبراطور ليدج اياسو الذى حكم الحبشة بعد منليك بتعاطفه مع المسلمين، حتى ظن الكثيرون أنه أسلم لما كان يظهره من المحبة للمسلمين .

وفى عهد الامبراطور هيلاسلاسى، اشتدت وطأة الحكومة المركزية على المسلمين، وأخذت تبالغ فى ذلك التسلط والقسوة حكومة جما الإسلامية؛ خاصة بعد وفاة سلطانها ابى الجغار عام ١٩٣٤م؛ حيث خلفه حكام ضعاف مما جعل الإمبراطور هيلاسلاسى يضيق الخناق على استقلال جما الذاتى، حتى أعلن صراحة ضمها إلى حكمة مباشرة وبسقوط سلطنة جما الإسلامية، فإنه لم يبق فى الحبشة سلطنة إسلامية مستقلة، بعد أن كانت بها سبع سلطنات إسلامية، لكل منها قوتها العسكرية وإدارتها الخاصة .

وتلك هى قصة الإمارات الإسلامية، أو ممالك الطراز الإسلامى، التى أحاطت بالحبشة من الشرق والشمال والجنوب، وقصة ازدهارها، وتطور الحركة الإسلامية، وكيف شهد القرن الخامس عشر والسادس عشر حركة اسلامية قوية، قاد نضالها الإمام أحمد بن ابراهيم المعروف بالقرين أو الأشول ، وكيف كانت الخطة الإسلامية تسعى لاحتواء الهضبة الحبشية، فى ظل العقيدة الإسلامية، وكيف كانت القوى الصليبية العالمية البرتغالية

والفرنسية، تقف سداً منيعاً؛ لتحول دون وصول الراية الإسلامية إلى أقصى ارتفاع الهضبة، وكذلك تقوض البناء الإسلامى، وسادت الروح الصليبية أرض الحبشة .

وفى حقيقة الأمر لو أن الإمارات الإسلامية تعاونت تعاوناً وثيقاً، واتحدت فى مواجهة الخطر الصليبى، وكان الموقف الإسلامى الخارجى مشجعاً ودافعاً لها لما تقوض البناء الإسلامى، ولما عانى إخوة الإسلام فى أرتيريا اليوم من تلك السيطرة الحبشية المسيحية، التى تحاول أن تطمس معالم الإسلام فى تلك البقاع، ولا تسمح بظهور أى تيار إسلامى أو قيام دولة إسلامية فى أرتيريا، بعد أن سلمت الامم المتحدة فى وقت ليس بعيداً، أرتيريا للامبراطور العجوز هيلاسلاسى، تلك الأراضى الإسلامية التى يمتد عمق الإسلام والمسلمون بها، منذ القرن الأول الهجرى .

ولقد حصلت أرتيريا على استقلالها مؤخراً عام ١٩٩٣م، ولكن تحت قيادة مسيحية بقيادة (أساس اتورى) ، الذى رفض الانضمام لجامعة الدول العربية، وأقام علاقات سياسية مع إسرائيل، ومنحها قواعد عسكرية فى جزر دهلك وغيرها فى جزر البحر الأحمر .

* * *

الفصل الثانى

إمارة ساحل الصومال

لم تكن لهذا الإقليم حدود سياسية، كما هو معروف فى الوقت الحالى، وكل ما هو معروف هو حدود قبلية بين مناطق الرعى الفعلية لكل فريق ، وقد قامت حكومات المدن أو الإمارات على الساحل، ولم تتعد سيطرتها حدود المنطقة التى تقوم فيها المدينة، وكان فى داخل الإقليم قبائل رحل، تنتقل من هنا وهناك، وكانت هذه المجموعات من المدن والأقاليم تكون دار الإسلام .

اما اسم صوماليا أو الصومال الذى عرفت به حديثا، فإن هذا الاسم يرجع على وجه التحديد أو التقريب إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد ورد الاسم فى قصيدة أثيوبية، بمناسبة انتصار نجاشى الحبشة بسحق على امارة (اوقات) فى ذلك القرن .

غير أن هناك احتمالاً بأن يكون أصل هذا اللفظ يرجع إلى إحد مصدرين، أو إلى الاثنين معًا وهما وادى شمايل الموجود فى عمان فى جنوب شرق الجزيرة العربية، أو وادى صومل الموجود فى اليمن على مسافة من صنعاء، وفى هذه الحالة يكون هذا الاسم فى صورته المحرفة قليلا ، قد جاء مع جماعات عربية، جاءت إلى الإقليم فى فترات سابقة على القرن التاسع الهجرى أو الخامس عشر الميلادى؛ حيث إن الهجرات العربية إلى تلك الأقاليم موغلة فى القدم .

وقد تمكنت هذه الهجرات من تكوين إمارات عربية فى الأماكن الساحلية، ثم ما لبثوا أن توغلوا فى الداخل؛ حيث تقيم قبائل الصومال من العيسى والأعفار وغيرهم، وكونوا هناك إمارة إسلامية عربية كبيرة، عرفت بإمارة هرر أو عدل ، أما الإمارات الساحلية فكانت إمارتا زيلع ومقديشيو، وأشرف على هذه الإمارات جميعا العرب الذين تأقلموا فى البيئة الصومالية .

وما يعنينا هنا فى ذلك الفصل، هو الحديث عن إمارة مقديشيو؛ حيث سبق الحديث فى الفصل السابق عن إمارة هرر وزيلع وعدل، ومن هنا فإن ذلك الفصل خصص للحديث عن إمارة مقديشيو فقط .

وقد استطاع العرب النازحون إلى إقليم الصومال أن يعربوا قبائل هذه البلاد، وسجلوا

حتى القرن السادس عشر الميلادى نجاحا كبيراً فى هذا المضمار؛ الأمر الذى أدى إلى قيام تلك الامارة العربية الإسلامية؛ حيث إن الفضل فى ذلك النجاح يرجع إلى أسلوب الدعوة الإسلامية، الذى اتبعه العرب المهاجرون مع القبائل الصومالية؛ بحيث كان من القوة والإقناع، بحيث استطاعوا أن يجعلوا لدعوتهم أنصاراً ومؤيدين فى الساحل، وفى الداخل على السواء .

ويبدأ هذا الاقليم (صوماليا) من جنوب زيلع فى خليج عدن، وينتهى جنوبا عند رأس شميونى أو كمبولى، وهذا على تقدير الحدود السياسية الحالية ، وقد عرف هذا القسم باسم ساحل البنادر، لقيام مدن تجارية على شاطئه، وعلى القسمين الجنوبيين اسم القرن الأفريقى .

وإمارة مقدشيو التى نحن بصدد الحديث، عنها يطلق عليها الصومال الجنوبى؛ حيث إن الأجزاء الشمالية كانت تدخل فى الإمارات السبع السابق الإشارة إليها، ويرى المؤرخون الصوماليون أن كلمة مقديشيو مركبة من كلمتين الأولى:«مقد» وهى اختصار لكلمة مقعد، والثانية «شو»، وهو تحريف لكلمة شاة، دون اضافة ياء فى الكتابة بعد الدال والشين، وعلى هذا فإن كلمة مقديشى، بها مقطعان أحدهما عربى والثانى فارسى، ولا تدل هذه التسمية على ارتباط إنشاء المدينة بالفرس، لأن بعض الكلمات الفارسية كانت شائعة فى الجزيرة العربية، وعلى الساحل منذ أمد طويل، ولأن هجرات الفرس كانت فى الغالب إلى الجنوب من مقديشيو فى المنطقة، التى قامت فيها سلطنة زنجبار، والإمارات الإسلامية الأخرى الممتدة حتى سفاله جنوباً.

وقد كانت مقدشيو عاصمة الدولة الصومالية القديمة، ثم تناولها التحريف فصارت متعارفة بذكر مقديشيو بفتح الجيم، وقد تضم، مع سكون القاف وكسر الدال المهملة وضم الشنين المعجمة، مع سكون الواو، وليس إبدال الدال ولا بعد الشين ياء؛ فكتابتها مقديشيو تغير فاحش، سببه الترجمة من الكتابة الأفرنجية .

وكان المعروف حتى الآن أن اسمها حمر أيضاً، وتقول رواية إن جماعة من الحميريين نزلوا فيها يوما ما، وهى خالية من العمارة فسئولوا عن نسبهم، فقالوا نحن حمير فسمى المكان حميرا ، ثم تناولت الاسم عوامل التحريف اللغوى حتى انتهى إلى حمر، ومعناه بالعربية احمر.

وقد اختلف المؤرخون فى تأسيسها، فقد روى أنه تم إنشاؤها قبل مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بمائتى عام، وهى أصح الروايات، ويقال إن جماعة من المسلمين وفدت من نواحى البحرين على الخليج العربى. قراراً من ملك الأحساء، وبنوا مدينة مقديشو،

ومقديشو أو مقديشيو على بحر الهند، يجرى بها نهر كبير يصب فى المحيط الهندى، على مقربة من مقديشيو .

وهناك اقوال تذكر أن مدينة مقديشيو ظهرت فى القرن العاشر الميلادى، بعد أن تم إنشاؤها على يد مهاجرين من العرب، نزحوا من الخليج العربى، بعضهم من أزد، هاجروا من عمان فى أيام عبد الملك بن مروان؛ بسبب صراع القبائل بعضها ضد بعض، وكان هؤلاء المهاجرين بقيادة سليمان وأخيه سعيد الجلنديين، وبعضهم من الزيدية الذين فروا إلى الساحل، عقب القضاء على ثورة زيدين على بن زين العابدين، فى عهد هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وقد اندمج هؤلاء فى السكان الأصليين، وبنى أحفاد هؤلاء مدينة مقديشيو، ومدينة براوة وحول مقديشيو، أنشئت مدن متعددة، ولكن مقديشيو كانت تفوقها جميعا، اذا تركزت فيها أعظم الحركات التجارية فى شرق أفريقيا، وكانت لها السيادة السياسية على المدن، التى تحيط بها ، إلى أن انشئت مدينة كلوه فبدأت تنافسها فى مكانتها .

ويمكن أن تطلق على تلك الامارة التى كانت تسيطر على منطقة شرق أفريقيا الوسطى، التى كانت تمتد من خليج عدن شمالا إلى خليج ديلاجو، وقد تكونت تلك الإمارة بفعل الرغبة فى التجارة واستقبالها القادمين، الذين كانوا ضحايا الضغوط السياسية، وفى الوقت نفسه كانت تتحرك القبائل باسم الإسلام، ولقد كانت الهجرة الكثيرة، وهى التى تحققت على يديها بناء مقدشو فى عام ٩٢٠م، وكان ذلك وقت هجرة أبناء قبيلة بنى الحارث، الذين هاجروا من إقليم الأحساء، وكان الصوماليون يسكنون المنطقة الساحلية، المطلة على خليج عدن، وتحتل الجالا المنطقتين الجنوبية والغربية .

وقد كان لمدينة مقدشيو والمدن المحيطة بها- وتقع تحت نفوذها السياسى- صلات تجارية مع الدول المطلة على المحيط الهندى، ومما تجدر الإشارة اليه أن منطقة الصومال كانت الميدان، الذى اتخذته قبائل الجالا لشن غاراتها على شرق أفريقيا، أو ما يطلق عليه ساحل الزنج؛ الأمر الذى جعل سكان الساحل يلجأون إلى أماكن أخرى، فمنهم من دخل إلى منطقة البحيرات، ومنهم من انتقل إلى اثيوبيا وأرتيريا وحوض وادى النيل الأوسط، وكانت هذه المناطق الأخيرة أكثر أمناً واستقراراً، وتساعد على النشاط التجارى .

ولقد كانت إمارة مقديشيو تمارس الأعمال التجارية والصلات الاقتصادية مع حوض

النيل الأوسط بصفة عامة، بالإضافة إلى أنه كانت هناك روابط ثقافية واجتماعية ودينية، تربط بينها وبين ساحل الصومال، عن طريق تجارة القوافل بين المدن الساحلية وداخلية القارة .

وكانت تنظيمات الحكم فى مدن الساحل الشرقى الأفريقى تجعل من الشيخ أو السلطان أو الملك ، الحاكم عن طريق مجلس الشورى، المكون من أعيان المدينة ورجال دينها وكبار التجار .

وقد حافظت مقديشيو على استقلالها؛ فلم يستطع الأمير سليمان أعظم حكام دولة الزنج، الذى مد سلطانه على أكثر بقاع الساحل أن يتسلط على مقديشيو، وكان حكام مقديشيو يخافون عليها من المؤثرات، التى تختفى خلف التجارة، ولهذا لم يسمحوا للتجار الأجانب أن يبيتوا فيها، وكان عليهم أن يغادروها مع غروب الشمس، وقد نمت تجارة مقديشيو فى هذا العهد نمواً واسعاً، وكانت تحكمها ارستقراطية عربية تجارية، لا تتوارث الحكم فيها ، مما جعل الباحثين يشبهونها بجمهورية البندقية .

كما أنه لا توجد معلومات متوافرة عن هذه المدينة، يمكن الاعتماد عليها، ولكن ما نقله البرتغاليون عن أصل تأسيس مدينة مقديشيو، اعتمادا على روايات محلية، يمكن أن يصبح مادة علمية؛ حيث تقول الروايات البرتغالية إن جماعة كبيرة العدد من العرب، أصلها من مدينة مجاورة للأحساء على الساحل الغربى للخليج العربى، على مقربة من البحرين، نزلت فى ثلاث سفن- يقصد الهجرة- بزعامة سبعة أخوة، فروا من جور وجبروت حاكم الأحساء، وهبطت تلك الجماعة الساحل الشرقى لأفريقيا، وكانت مقديشيو أول مدينة عربية، تأسست فى هذا الساحل ثم تلتها براوة ، وعندما وفد البرتغاليون إلى مقديشيو فى النصف الأول من القرن السادس عشر، كان يحكمها اثنى عشر شيخاً، يبدو أنهم من سلالة السبعة أخوة، الذين أسسوها، والجدير بالذكر أن العرب من سكان مقديشيو، الذين كانوا قد أقاموا فى هذه المنطقة قبل مقدم تلك الهجرة، أبوا الخضوع لهم، ويبدو أن ذلك كان بسبب اختلاف المذاهب الدينية بين السكان العرب فى مقديشيو، وكانوا من الزيدية وبين الوافدين الجدد، وكانوا من الشافعية. ولما عجز الزيديون عن مقاومة خصومهم فى المذهب، تركوا المدينة، وتوغلوا فى الساحل إلى الداخل .

وعلى هذا فإنه لا يعرف تاريخ محدد لهذه الهجرة، التى ترتب عليها تأسيس كل من مقديشيو وبراوة، وإن كان المحتمل أن مقدشيو تأسست فى أوائل عهد الفاطميين، فى مصر والذين بدأوا حكمهم عام ٣٦٩هـ .

وقد استطاعت قبيلة الإيجل الصومالية أن تستولى على السلطة فى مدينة مقديشيو، فى القرن الثالث عشر الميلادى. وأول من حكم مقديشيو من قبيلة الإيجل، هو الشيخ عمر جلولة، ورسم نظام التوارث فى حكم مقديشيو بين أولاده، وفى عهد ابنه أبى بكر بن عمر الأجل زار، ابن بطوطة مدينة مقديشيو .

وقد قال ابن بطوطة عنها أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً، وهى مدينة متناهية فى الكبر، وأفاض فى الحديث عن نشاطها التجارى، وأكد اتصالها اقتصاديا بمصر ، إذ تصنع بها الثياب الرقيقة المنسوبة إليها، والتى لا نظير لها، ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ، كما ذكر أن القاضى الذى استضافه فى منزله أثناء إقامته بمقديشيو يدعى ابن البرهان، وقال عنه ابن بطوطة إنه مصرى الأصل، ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر امارة مقديشيو، وأن سلطانها يجيد العربية، وإن كان يتكلم المقديشية، ويظهر من وصفه لمدينة مقديشيو أنها وصلت إلى درجة كبيرة من التطور، وأصبحت لها أنظمة وتقاليد خاصة بها. ويتضح ذلك من جلوس السلطان على العرش، وما يحيط به من أمراء ووزراء ووجوه القادة كل حسب مرتبته، وأن الأطيال والاثغار والأبواق كانت تضرب عند جلوسه ، كما تحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء، وذوى الرأى والمشورة، وكيفية نظرهم فى شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يصف لنا الحياة الإقتصادية به، ومدى ما وصلت إليه السلطنة من اتساع فى النفوذ، ونمو مطرد فى التجارة. ولقد تحدث عن نظام الشورى، وتقدير العلماء والفقهاء بين الرعية ومع السلطان، وعن الأبنية العظيمة بالمدينة؛ مما يفيد أن مقديشيو آنذاك كانت تنعم بحياة من الرفاهية والازدهار والاستقرار السياسى والاقتصادى .وقد كان المسلمون من مقديشيو يحجون إلى مسجدها الجامع فى مواسم معلومة ، والذى يبدو أنه دفن بجواره أحد الصالحين، و من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من أسرة زين العابدين بن على بن ابى طالب، أو من آل هاشم أو عبد مناف، أو عبد الدار، أو من قريش.

وقد أعجب ابن بطوطة بما عرف به أهل هذه البلاد من الورع والتقوى ، ويقول ابن بطوطة أنه إذ وصل أحد المراكب الى مقديشيو، خف إليه بعض الشبان من رجال السلطان، فاستفسروا عن كل ما يتعلق بالمركب من أين قدم، وسألوا عن اسم صاحبه واسم ربانه ، وعن حمولته، ووقفوا على أسماء المسافرين، وعرضوها على السلطان يأمر بإنزال من يستحق التكريم فى دار الضيافة ، ويقص علينا ابن بطوطة كيف أن قاضى المدينة وتلاميذه الذين كانوا يدرسون على يديه علوم الدين الإسلامى ، وكيف استقبلوه عند قدومه واستضافوه

بضعة أيام فى دار الطلاب باعتباره ضيف السلطان ، وقدموا إليه أحسن الطعام، وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه فى صحف خشبية كبيرة، ويجعلونه فوق صحاف فى الكوشان، وهو الأدام (تضم الألف الثانية مع الهمزة) مع الدجاج واللحم والحوت (أى السمك والبقول) ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب، ويجعلونه فى صحفه، ويجعلون اللبن المربب فى صحفه، ويجعلون عليه الليمون المصبر (بضم الميم وفتح الصاد وفتح الباء مع التشديد)، وعن قيد الفلفل المصبر المخلل، والمملوح، والزنجبيل، والواحد من اهل مقديشيو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا ، وهم فى النهاية من ضخامة الجسوم وسمنها .

بل لقد ورد ذكر مقديشيو فى حوليات الصين ، ولاسيما فى عهد أسرة منج، ويتحدث المؤرخ الصينى عن جفاف إقليم الصومال وكثرة مرتفعاته وقلة أمطاره ، ويذكر أن الدور مبنية من الحجر، وكانت مقديشيو أهم مدن شرقى أفريقيا وخاصة فى التجارة مع الصين، وقد بلغ أوج عظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وفى عام ١٤٣٠م زار الأسطول الصينى مقديشيو ، ولما جاء الأوربيون إلى هذه البلاد، التى لم تطأها أقدامهم من قبل، أعجبوا بما بلغه هذا المجتمع العربى الإسلامى من حضارة، لا تقل عما عرفوه فى أوروبا .

وكان شيخ مقديشيو ورجال حاشيته أول من مر بهم فاسكوداجاما، من أهالى هذه البلاد، وكانوا يرتدون عباءات من المخمل والقطيفة المنسوجة بخيوط الذهب والفضة وسيوفهم وخناجرهم مكفتة بالفضة، ولم يستطع دجاما أن ينزل بهذه المدينة، بعد أن شاهد قوة رجالها، انما لاحظ انها مدينة عظيمة، تتكون بيوتها من طوابق عدة وقصور شامخة، تحيط بها أربعة أبراج، وهذا لم يكن المجتمع فى مقديشيو عربياً خالصًا ، فقد كون العرب ارستقراطية حاكمة، وكان الهنود يملكون أغلب سفن المحيط، ويزاولون التجارة ويشتغلون بالشئون المالية، وإلى جانب الهنودكانت طبقة السكان، التى هى مزيج من العرب والأفارقة، وهم يتخاطبون باللغة السواحيلية ، وهكذا استطاع العرب ان يسيطروا على هذه الشعوب الزنجية، بفعل روح الإسلام والمحبة والأخوة، وهذه هى طبيعة الجاليات التى استقرت فى مقديشو .

وكانت مقديشيو مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، يحكمها سلاطين الصومال ومشايخه بطريق الوراثة، يرث الابن الولاية عن أبيه. وعن أهلها أضاف ابن بطوطة:«أهلها لهم جمال كثيرة، ينحرون منها المائتين فى كل يوم، ولهم أغنام كثيرة، وهم

تجار أقوياء وبها نضع الثياب المنسوبة إليها ، وسكانها أهل إسلام ودين وعفاف، وهى مدينة ذات بهاء، وهى متطورة تبعاً لتطور حضارتها الإسلامية، ويتدفق إليها الآف التجار من أقطار آسيا وأفريقيا، وصارت مركزاً علمياً مهماً، يشع منها نور الإسلام، وكان الطلاب يأتون اليها وفوداً من الأقاليم والمدن الصغيرة والمجاورة والبادية لتلقى العلوم الدينية، بعد أن يكونوا قد أتموا حفظ القرآن الكريم؛ لأنها كانت ذات أثر كبير فى النهضة التعليمية بالمنطقة، وفى سير تعاليم الدين الإسلامى؛ حيث كانت تضم بين جنباتها ومدارسها نخبة من علماء الفقه والشريعة والدين واللغة العربية وآدابها، وهى مجتمع للسفن والقوافل، التى لا تنقطع، وخصوصاً القوافل بينها وبين هرر دائما متصلة ومستمرة، وقد توالى المهاجرون اليها نظراً لمركزها التجارى».

وكانت مقديشيو قوية الحصون، فاستطاعت أن ترد الغارات، وأن تعيش عزيزة الجانب فترة طويلة، ولم يستطع البرتغاليون أن يسيطروا عليها، عندما سيطروا على الساحل الجنوبى فى القرن السادس عشر الميلادى ، والسبب فى ذلك ما ذكره بعض المؤرخون الأجانب من ان بعض الحكام فى ساحل الصومال، كانوا يدينون بالولاء لدولة المماليك فى مصر ، وبعد المماليك عاون الأتراك العثمانيون مدينة مقديشيو على الاحتفاظ باستقلالها .

وذلك لأنه عندما قدم البرتغاليون فى عام ١٥٠٣ ، بسط البرتغاليون نفوذهم التجارى على ساحل المحيط الهندى الجنوبى، وتطلعوا إلى النزول فى مقديشيو، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها وعلى مقاليد الحكم بها، ولو أن بعض التجار كانوا ينزلونها تحت حماية العثمانيين، وكانت مقديشيو محتفظة باستقلالها طوال حكم البرتغاليين فى شرق أفريقيا، وكانت محطة لسفن العرب ذهاباً وأيابا من بلاد العرب إلى زنجبار .

ولقد شارك شعب الصومال الأمام احمد بن ابراهيم، المشهور بالشول أو القرين، حركة الجهاد ضد الأحباش، وذلك عندما استنفر قبائل الصومال للجهاد؛ فوصلت إليه القبائل الصومالية، وعلى رأس كل قبيلة منهم زعيمها ، وكان من الذين لبوا نداء الجهاد المقدس (احمد جرى بن حسنين الصومالى)؛ حيث وصولوا إلى هرر بعدتهم وخيولهم وسربهم الإمام أحمد سروراً عظيماً، كما وصل بعدهم منتان بن عثمان بن خالد الصومالى، وغيرهم، كثير من قبائل الصومال، الذين شاركوا فى حركة الجهاد الإسلامى .

وقد كان شعب الصومال والأعفار والجلا من الشعوب البدوية، التى لعبت الدور الأول فى تاريخ النضال من أجل الإسلام ، هذه الشعوب البدوية أيضا، والذى منها شعب الأعفار ويسميهم الأحباش والعرب باسم الدناقل، والذين كانت ظروف بيئتهم ومصاعبها تدفعهم إلى

الخروج فى هجرات موسمية، منطلقين نحو الغرب؛ حيث الاستقرار والطمأنينة فى قلب الهضبة الحبشية، وإلى الجنوب من هؤلاء، نزل شعب حامٍ آخر، هو الشعب الصومالى، والذى اندفع فى هجرات مطردة نحو الجنوب والشمال والغرب .

وبلغت هذه الهجرات أقصاها فى عهد الإمام أحمد القرين، واشترك الصوماليون فى حركة الجهاد، وأشار المؤرخ عرب فقيه إلى القبائل الصومالية، التى شاركت فى الحرب بجانب الإمام، ولبت نداء الجهاد، وقدمت وعلى رأس كل قبيلة قائدها ، كما اشار إلى المغانم الوفيرة من الخيل والبنغال والبقر والدقيق والقماش، التى حازوها بفضل تأييدهم لأحمد بن إبراهيم الغازى .

وكانت هجرات الصوماليين فى القرن السادس عشر الميلادى، قد أخرجتهم من مواطنهم ودفعتهم نحو الغرب، وقد استغلوا فرصة الضعف التى اصابت الحبشة، من جراء غزوات الإمام احمد القرين، وهاجروا إليها وأوغلوا فيها وشاركوا فيها .

وهذا يعطى الدليل القوى على قوة الإيمان، التى تجلت فى انطلاق الصوماليين نحو الغرب؛ للمشاركة فى الجهاد الإسلامى، الذى تزعم حركته الإمام احمد القرين؛ مما يدل على وحدة الترابط الإسلامى بين الصومال والأحباش المسلمين، وكانت توجد فى مدينة مقديشيو أسواق ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليين من الصوماليين أو الدناقل أو البجه؛ لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجونه، أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم فرصة الاحتكاك بالحياة الإسلامية عن كسب ويدفعهم إلى العمل والجهاد فى نشر دين الله الخالد، وهكذا كانوا رسل سلام وإسلام إلى كل المناطق الداخلية .

ولا يعلم عن تطور التنظيمات العربية التى جاء بها العرب إلا ما نجده من آثار ، ومن اقدم هذه الآثار المسجد الكبير، الذى له مئذنة أسطوانية، وكانت بداية العمل فيه أول المحرم من عام (٦٣٦هـ / ١٤ أغسطس ١٢٧٨م). وهناك ايضا مسجدان قديمان، وهما: مسجد فخر الدين ومسجد أربع ركن ، وقد أنشىء جامع فخر الدين فى نهاية شعبان (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م (وقد بناه السلطان أبو بكر فخر الدين، وكان أول سلطان لمقديشيو، كما جاء فى الروايات المحلية، أما مسجد اربع ركن، فقد أعيد بناؤه، ويحمل نقوشًا على مؤسسة خسرو بن محمد الشيرازى.

وقد كانت وفدت خلال القرن التاسع الميلادى جماعة من التجار، تحت قيادة رجل، ينتمى إلى الطائفة الاسماعيلية الشيعية من علماء الطريقة القرمطية، التى زعزعت العالم

الإسلامى عن طريق الحق والصواب، ثم جاء بعدهم جماعة من التجار الشيرازى، وهم الذين بنوا مسجد الأحناف، وجاء بعدهم تجار من العراق .

وهنالك أيضا اثر مهم، وهو أنه قد أنشىء فى مقديشيو حوض جاف للسفن، محفور فى الساحل المرجانى، وحفر له طريق إلى المحيط، وكانت مياه هذا الحوض تندفع إلى المحيط فى حالات الجزر .

وقد حدث خلاف داخلى بين زعماء مقديشيو ، انتقل إلى صراع مرير فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان القرن الثالث عشر الهجرى قد شهد اختلاف اهل بنادر وتشعبوا؛ حتى قتل بعضهم بعضًا ، مع ابتداء قدوم رواد أوروبا، فكتب بعض الزعماء الوطنيين رسالة إلى سلطان زنجبار فى ذلك الوقت السلطان سيد برغشى بن سعيد، يطلبون منه حمايتهم من غارات قراصنة الأوروبيين، وقد استجاب سلطان زنجبار لهذه الرغبة، ومد نفوذه إلى سواحل الصومال الجنوبية فى عام ١٨٧١م، ولكن لم يتجاوز حكمه أسوار المدينة، مع أنه يدعى حق السيادة ، وفى الوقت نفسه كان الاستعمار الأوروبى يدق أبواب مقديشيو ، وفى الوقت نفسه، كان نفوذ مصر ينساب إلى الجزء الشمالى من هذه المنطقة؛ ليشمل مقديشيو وكسيمابو .

وفى عام ١٨٩١م، تنازل السلطان الزنجبارى عن نفوذه فى ساحل الصومال لإيطاليا، مقابل مائة وأربع وأربعين الف من الروبيات، وبذلك وقعت مقديشيو تحت حماية الإيطاليين، الذين عاملوا اهلها بالذل والاحتقار، واستمرت إيطاليا تحكم ذلك الإقليم، زهاء خمسين عامًا؛ حتى سقطت تحت أقدام بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١م .

وفى يناير ١٩٤١م احتلت القوات البريطانية مقديشيو، واتخذتها قاعدة مهمة؛ لمراقبة المحيط الهندى، حتى عادت إيطاليا لتكون وصية على الصومال من قبل الأمم المتحدة، وتسلمت زمام الحكم فى الصومال من سلطات بريطانيا وأصبحت مقديشيو العاصمة فى عهد الوصاية الإيطالية .

وهكذا كانت مقديشيو فى أقصى شمال الإمارات العربية، تمر فى تطور مشابه من الرقى والحضارة والتقدم، فقد قامت فيها سلطنة إسلامية، ذات نظم ورسوم وإدارة وشورى، وقد أصابت قدراً كبيرا من الثروة والجاه ، وقد تبلورت تقاليدها ونظمها وكيفية تطبيق الشريعة الإسلامية ، بل إنها استطاعت ان تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقى، طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد كان لها نشاط صناعى؛ فقد عرفت مقديشيو

صناعة المنسوجات الرقيقة، التى كانت تصدر إلى العالم الإسلامى كله، والتى كان يحمل منها جزء إلى مصر .

وهكذا استطاعت هذه المجتمعات، بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها، على هذا النحو، أن تصل من الغنى والترف ما يقرب من الخيال .

وليس هناك أدنى شك أن مقديشيو قد فرضت نفوذها السياسى، على بعض الأجزاء والمدن المحيطة بها شمالا وجنوبا؛ فقد وصل نفوذها على المنطقة الساحلية حتى راس حافون ، ومدت نفوذها جنوبا إلى براوة وقسمايو، بعد أن أعلن ولاة هذه المدن ولايتهم لمقديشيو وحكامها وتعاونوا معها ، ذلك لأن هذه السلطنات والإمارات كان طابعها اقتصاديا صرفاً، وتاريخها الاقتصادى المزدهر يؤثر فى حضارتها فى حياتها الاجتماعية ، بل يؤثر فى نشاطها الإسلامى .

ولقد كان الحديث عن وسط شرق أفريقيا، باعتبار أن مقديشيو هى المعنية بذلك الاسم، حيث إن هناك الإمارات الشمالية والداخلية، التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، أما الإمارات الجنوبية فسوف تكون حديث الفصل القادم، ولقد شهد القرن التاسع عشر الميلادى وصول مصر إلى تلك الأنحاء؛ حيث بسطت مصر نفوذها على الصومال الجنوبى، ووصلت إلى جنوب مقديشيو فسيطرت على براوة وقسمايو .

حيث شهد عام ١٨٧٥م- وفى أكتوبر- توجهت البعثة المصرية إلى رأس حافون، الواقعة جنوب رأس جردفون، ووصلتها فى ١٥ اكتوبر ١٨٧٥م، ولما وصلت الحملة إلى رأس حافون، حضر عم سلطانها وبرفقته بعض الأهالى بهذه الجهة وشيوخها؛ لتقديم فروض الطاعة، وتسلموا الأعلام المصرية لرفعها على البندر، وتوجهت الحملة بعد ذلك جنوبًا إلى براوة؛ حيث قابلوا أميرها فقدم لهم كل مساعدة ممكنة، ثم حضر مشايخ بندر براوة بدورهم أيضا، فقدموا فروض الطاعة، وقدموا كتاباً إلى المندوب المصرى، يعلنون فيه ولاءهم للحكومة المصرية، وينفرون من حكومة السلطان برغشى بن سعيد ، سلطان زنجبار ، الذى يجبى منهم العشور، دون أن يكلف نفسه الاهتمام بحمايتهم من أعدائهم الذين يغيرون عليهم ، وبعد رفع الأعلام المصرية فى هذه الجهة ، استأنفت الحملة سيرها حتى وصلت نهر الجب، ثم توجهت البعثة المصرية بعد ذلك إلى اكثر من ذلك جنوباً؛ حيث مدينة قسمايو، وكان بندر قسمايو يحكمه حاكم من قبل سلطان زنجبار، ويدعو هذا الحاكم (احمد بن حميد

العدوى)ومعه ستون جندياً، فلما أطلقت المدفعية المصرية مدافعها احتفالاً بالعيد ، فقد وقع الرعب فى قلوب الحاكم وجنوده، فهربوا بعائلاتهم، قاصدين جهة زنجبار، وقد غير رئيس الحملة اسم قسمايو، فسماها بورت اسماعيل، وهى ميناء جيد صالح لرسو السفن ، وبالندر عدة مساكن من الخشب، ولا يوجد بها مساكن صحية، وسوقها عامر بالمتاجر؛ إذ يفد اليها تجار الهند ومعهم بضائعهم من الأرز والبصل وقصب السكر ، كما يرد لها التمر من مسقط والذرة من زنجبار، وذلك لمبادلتها بالسفن والصمغ وريش النعام والعاج والأغنام، التى ترد إليها من داخل القارة الأفريقية، ولكن وقوف انجلترا فى وجه التوسع المصرى فى هذه الجهات؛ بدعوى المحافظة على حقوق سلطان زنجبار، قد أدى إلى توقف الحملة المصرية بل إلى انسحابها ، ولقد كان القصد الاساسى من هذه الحملة هو ربط الساحل بالداخل، ولذلك فقد تأهبت الحملة بعد أن وضعت يدها على النقاط الساحلية المهمة؛ للتوغل الى الداخل بقصد الوصول الى بحيرة فكتوريا، وتمهيد ذلك الطريق الذى يربط الجهات الداخلية، التى دخلت حوزة الحكومة المصرية بالساحل الشرقى الأفريقى القريب من مقديشيو .

وهكذا تشير الحقائق التاريخية أنه من رأس جوار دافوى حتى الساحل الشرقى لأفريقيا، إلى أن تاريخ العصور الوسطى لهذه المنطقة، إنما كتبته عناصر العرب، التى استقرت هناك مع بداية العصر الإسلامى، والتى يرجع المؤرخون المسلمون أصولها إلى العرب قبل الإسلام، إلا أن تاريخ الحضارة الإسلامية فى الساحل الشرقى لا يرجع إلا إلى القرن الثالث عشر ، وعلى هذا الأساس فإنه يمكن أن نفهم مسألة استقرار العرب فى شرق أفريقيا فقد كانوا يشاركون فى التجارة العالمية الخاصة بالمحيط الهندى، وكانت العناصر المستقرة الأولى فى القرن الثامن تابعة لمذاهب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وقد استطاع العرب فى تلك الفترة تأسيس أربعين مدينة مشيدة بالحجارة، وبعيدة عن الساحل الشرقى ، وتروى آثار المنطقة أنه فى منتصف القرن الثالث عشر، حتى وصول البرتغاليين فى نهاية القرن الخامس عشر كان يخيم على ساحل شرق أفريقيا هدوء وسلام شاملان ، وقد استقرت جماعات إسلامية متحضرة فى مقديشيو، وطول الساحل الصومالى الكينى التنجانيقى، فى تشييد بيوتهم من الكتل الصخرية، كما استوردت الفخار من سيام والخزف الصينى ومعادن الصين، وقد سك سلاطين مقديشيو نقودهم النحاسية فى هذه الفترة، فى دور صك النفوذ؛ ليمكن تداولها فى أى مكان من أفريقيا ، كما أنه يوجد بها مصنع للنسيج، ينتج الأقطان والملابس المصنوعة من وبر الجمال؛ لتباع فى اسواق مصر ، ولقد كان العاج من أهم صادرات هذه

المدن الصغيرة على طول الساحل، ويبدو أن التحول الاقتصادى الذى حدث فى القرن الثالث عشر كان نتيجة لاستغلال الطرق التجارية، التى كانت موجودة من قبل ، وإذا كان التقدم الاقتصادى والمادى واضحاً فعلاً فى مقديشيو وماجاورها ، إلا أن أهم ظاهرة فى القرن الثالث عشر كانت التقدم فى الأمور الثقافية والفنية، التى انعكست على رخاء المنطقة، وقد امتد ذلك الاثر إلى المسلمين فى المحيط الهندى، على الجانب الآخر فى مجال توسعهم .

ولقد انعكس الاثر الدينى فى فترة ازدهار مقديشيو على المساجد والمقابر الإسلامية، على طول الساحل، وربما بدأت اللغة والحضارة السواحيلية تتخذ طابعها، وتنتشر بين مسلمى البانتو على السهل الساحلى، وتشير الوثائق أنه كانت هناك اتصالات بين الحضارة الإسلامية فى مقديشيو على الساحل الشرقى، وبين الداخل الأفريقى من الشرق أيضاً؛ ففى بيئة البانتو مثلا تعيش العناصر الصومالية السواحيلية، الذين عملوا فى التجارة بعد دخولهم الإسلام، فتبادلوها بريا مع الجالا الوثنيين فى جنوب مملكة الحبشة .

وهكذا نرى كيف أن مقديشيو كانت أقوى الامارات العربية الإسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا ، إذ نجد أنه عند قدوم البرتغال إلى هذه السواحل، فإنهم اخضعوا المدن بعد أن رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين ، ثم جاء دور مقديشيو، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها ، ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم فى مينائها، وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة، واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها؛ بسبب ذلك الموقف العسكرى العربى الإسلامى، وحشد المقاتلة بهذه الصورة، وكذلك بسبب موسم الرياح الموسمية، الذى كان على وشك أن ينتهى، وبهذا وقفت مقديشيو فى وجه البرتغاليين ، بل إن موقف الدفاع الذى وقفته فى وجه الزحف البرتغالى، كان من الأسباب القوية التى أدت إلى تقلص النفوذ البرتغالى فى شرق أفريقيا .

وإذا كان ظهور المندوب العثمانى فى تلك السواحل، قد قوبل بحماس شديد فى مقديشيو، وغيرها من المدن؛ حيث دخلت تلك المدن وأولها مقديشيو فى طاعة السلطان العثمانى؛ حيث وجدوا فى السلطان العثمانى المسلم القوة التى يمكن تلوذ بها مقديشيو .

ولقد ساعد مقديشيو على أن تقف ذلك الموقف، وتكون بتلك الصورة القوية والفتية ذلك؛ لأن هذه الامارة تختلف عن الإمارات الشمالية المجاورة لها، والتى دخلت فى صراع مع الحبشة ، هى أن مقديشيو- قبل قدوم البرتغاليين وسيطرتهم على الساحل الشرقى ومحاولة السيطرة على المدينة- لم تجد دولة مسيحية مجاورة لها، تنازعها لقمة العيش،

وتحاول القضاء عليها؛ مما أعطاها الفرصة والإزدهار، كما تحدث عن ذلك ابن بطوطة، عند رحلته وزيارته لهذه المدينة، ووصفه لها وصفاً تفصيلياً .

ومن هنا لم تقف الحبشة لها بالمرصاد ، ولم تكتب لها صفحة من صفحات الجهاد الإسلامى، سوى مشاركة بعض القبائل الصومالية فى حركة الجهاد الإسلامى، التى قادها الإمام أحمد بن إبراهيم، الشهير بالقرين أو الاشول ، كما أن تاريخها لم يتسم بطابع الفروسية؛ مما جعل بعض القرى والمدن، التى تخضع لسيادتها قد خضعت لسلطان زنجبار، بمجرد إرسال قوات بسيطة العدد إلى هذه المدن ، ومن هنا عاشت فى سلام، تتابع نشاطها الاقتصادى إلى أن كان قدوم الصليبيين البرتغاليين، الذين قدموا اليها من المحيط، وليس من البر، كما جاء الأحباش إلى اخواتهم فى الشمال، واستمرار القتال طوال اربعة أو خمسة قرون متواصلة؛ حيث وقفت البرتغال بمساعدتها للحبشة ضد حركة النضال الإسلامى، فى ممالك الطراز الإسلامى .

وقد سجل البرتغاليون إعجابهم بما رأوه وشاهدوه ووجدوه فى مدن الساحل الشرقى لأفريقيا وبصفة خاصة مقديشيو، التى لم تستطع أن تصل إليها قواتهم ، حيث شاهدوا مدن ومجتمعات متحضرة على ساحل شرق أفريقيا وتجارة مزدهرة، مع الشرق الأقصى والهند، كما سجلوا إعجابهم لخطوة من التناقص الشاسع بين الساحل الغربى والساحل الشرقى من أفريقيا الذى وجدوه يموج بالحياة ، فقد لقى التجار ما لم يكن فى حسبانهم حينما خرجوا يضربون فى البحر ، لقوا مرافىء تطن كخلايا النحل، ومدن ساحلية عامرة بالناس، وفرحوا حين وجدوا بين التجار العرب والهنود، رجالا عبروا المحيط مرات عديدة، ويعرفون من اجل ذلك دقائق أموره ومواعيد الإبحار فيه، والموانى التى يمكن الالتجاء إليها ، رأى البرتغاليون على هذا الساحل مدناً آهلة بالسكان، لا تقل نشاطاً عن مدنهم البرتغالية، كما رأوا تجارة عربية إسلامية بحرية فى الذهب والحديد والعاج والخرز والأقمشة القطنية والحريرية، وغير ذلك من المواد التجارية ، حيث وجدوا عالماً تجارياً، أوسع من عالمهم، الذى جاءوا منه واكثر ثراء من بلادهم، وحتى السفن التى وجدوها، كانت أكبر من سفنهم ، فقد كانت عابرة المحيط الهندى، أكبر آنذاك من السفن البرتغالية التى قدمت بقيادة دى جاما، حتى لقد عجب سكان الساحل من أين أتى البرتغاليون، وكل البلاد عندهم معروفة .

وهكذا كانت الهجرة العربية والدين الإسلامى الحنيف من الأسباب القوية ، بل العامل المؤثر والفعال، بل والوحيد فى ظهور هذه المدن السواحيلية، والتى كانت مقديشيو إحدى

المدن، بل الإمارات الكثيرة التى أقامها العرب المهاجرون من أقليم الأحساء؛ حيث هاجر الإخوة السبعة ، وهكذا ظهرت تلك المدينة الإسلامية، التى شاركت أخواتها فى الشمال وفى الجنوب؛ حيث ساحل الزنج ، حركة المد الإسلامى والانتشار الحضارى الإسلامى؛ لكى يتم طبع تلك الأنحاء بالطابع الإسلامى، وقد يكون هناك سؤال لماذا لم يتم تعريب تلك الأماكن، ما دام الإسلام وحضارته قد أخذت تؤتى ثمارها الثقافية والعلمية والحضارية، ونقول إن اختلاط العرب بنسب متفاوتة فى تلك الأقاليم مع سكان الإقليم من شعب البانتو والهنود والفرس، لم يدع فرصة للانتشار العربى الخالص ، لكن ليس فى ذلك أن اللغة العربية لم تكن اللغة الرسمية لهذا الإقليم ، كلا فإن الإقليم الشمالى ـ ساحل البنادر والصومال ـ والقسم الشمالى الممتد من الشمال حتى إقليم ارتيريا قد تعربت جنسًا ولغة وشعباً وعقيدة، وهكذا كانت صورة مدينة مقديشيو، كما عرضنا لها فى ذلك الفصل .

وقد كان بالإمكان الحديث عن مقديشيو مع بقية الإمارات الجنوبية ، لكن كون مقديشيو عاصمة ساحل شرق أفريقيا الأوسط، جعلنا نفرد لها ذلك الفصل؛ حتى يكون القارىء على بينة من كل هذه المدن العربية الإسلامية، ودور الإسلام فى حضارة تلك الأقاليم ورقيها وتمدينها، والأخذ بيد شعوبها إلى مدارج الحضارة العربية الإسلامية .

* * *

الفصل الثالث

الامارات الإسلامية الجنوبية

إذا كنا قد تحدثنا فى الفصلين السابقين عن الامارات الشمالية والوسطى، فإن الأمر يقتضى هنا أن نتحدث عن الإمارات الجنوبية، التى امتدت من جنوب امارة مقديشيو حتى سفالة جنوباً، مع الإشارة إلى كل إمارة أو ولاية مهمة من هذه الإمارات، ويطلق على تلك الإمارات الجنوبية بر الزنج أو إقليم الزنوج، وهو اسم يطلق على ساحل أفريقيا الشرقى، وتشمل المنطقة التى تمتد من حدود كينيا الشمالية مع بر العجم إلى سفالة جنوبا . وقد لعب هذا الساحل دوراً مهماً فى الحياة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية مع العالم العربى والإسلامى المجاور؛ حيث كانت منطقة الساحل الجنوبى مركزا وسطا، تلتقى فيه مختلف البضائع التجارية، كما التقت فيه حضارات العالم .

ويبدأ ساحل الزنج أو كما يطلق عليه أيضا ازانيا أو عيزانيا، والذى يتكون من مجموعة الجزائر المعروفة باسم أرخبيل لامو، وكانت جزيرة لامو ، الموطن الأول الذى نزل فيه الأمويون وأنشأوا فيها أول حكومة لهم فى شرق افريقيا ، وقد وجد هؤلاء جماعات من العرب قد سبقتهم إليها ، كما جاءت جماعات متتابعة بعد ذلك ، ويبدو أن جميع الجزائر التى يتكون منها ارخبيل لامو، كانت تحكمها أسرة وراثية، وتأتى بعد هذا الأرخبيل منطقة حوض الاتن المعروفة باسم تانا، وتقع فى هذه المنطقة جزائر الباجون، ويصب نهر الاتن فى خليج انجوانا ، وتقع على هذا الخليج المدينة المسماة باسم الخليج، وكانت من المدن الثلاث الكبرى على ساحل أفريقيا الشرقية ، وكان بها مسجدان كبيران، وعدد آخر، من المساجد، أصغر حجماً، وجاء بعدها ميناء مالندى جنوباً، وقد اشار إلى هذا الميناء الأوروبى الجغرافى المسلم الإدريسى، ثم بلدة جيدى، وتقع شمال ممبسا بحوالى ستين ميلاً، وبها خرائب عدة من مبانٍ، وقصر وجامع ومسجد وتأتى بعد ذلك بعد ممبسا التى هى مدينة قديمة، ولا يعلم أصل اسمها، ويقول البعض إنها جزء من ارض بنت Punt كما يقولون إن بها بلدة رابتا Rhapta، التى أشار إليها بطليموس، ثم فى الاتجاه الجنوبى تأتى بعدها زنجبار، ثم تصل جنوبا إلى كلوه وجزائر الكومورو ومدغشقر وسفالة .

وهناك اقوال تشيد إلى أن ميناء (قنبلو بفتح القاف والباء وسكون النون) كانت من أقدم الموانى والمراكز التجارية، التى انشأها العرب على الساحل، وقد زارها المسعودى، واختلفت الروايات حول موقع هذا الميناء ، فيقول البعض إنها كانت على جزيرة زنجبار، ويذكر آخرون أنها كانت على جزيرة بمبا ، غير أن المسعودى يحدد موقعها على أنها قريبة من سوفالة، كما أن ذلك الميناء جاء فى خريطة ابن ماجد أنها جنوب ممبسا .

كما أن الروايات تشير إلى أنه ظهرت فى تلك الجزيرة حكومة عربية، وتحكمها اسرة حاكمة مسلمة، وأن جماعة من عرب قبيلة الأزد، كانت تعمل فى التجارة، بالاضافة إلى هؤلاء، كانت هنالك جماعات من الأفارقة .

ويعتقد أن قيام الأسرة المسلمة العربية بالحكم فى تلك الجزيرة، يرجع إلى صدر الإسلام؛ أى قبل نهاية القرن السابع الميلادى ، فقد كانت هناك روايات مختلفة عن إنشاء مجموعات من الموانى، على يد الأمويين، الذين جاءوا إلى الشاطىء الجنوبى فى العصرين الأموى والعباسى، ومن ثم جاءت أيضا إلى الساحل جماعات متتالية من هجرات جماعية عربية إسلامية، وانتشر هؤلاء نحو الداخل، وجاءت مع هذه الجماعات العربية صور من الخلافات العقائدية، غير أن هذه الخلافات لم تؤثر على النشاط الاقتصادى، الذى تركزت حوله كل الجهود، الذى لم يترك ارضاً خصبة لبذور الخلافات والفتنة الطائفية والمذهبية والدينية، واستمر هذا الوضع قبل قدوم الاستعمار .

وهكذا إذ كانت قد وفدت على شرق أفريقيا جماعة من نواحى البحرين على الخليج العربى، فراراً من أمير الأحساء، وبنوا مدينة مقديشيو على ساحل المحيط الهندى ببلاد الصومال ، ثم هاجرت جماعة أخرى من الخليج العربى، بزعامة أحد أبناء سلاطين شيراز، وكانت أمه حبشية، فراراً من سوء معاملة إخوته له، وقد رحلت هذه الجماعة إلى مكان على ساحل شرق أفريقيا؛ حيث أسسوا مدينة كلوه (بكسر الكاف وسكون اللام) ، وتقع حالياً فى تنزانيا، وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ربوة عالية، تشرف على الخليج العربى، وعن هذا الطريق أخذوا يشتركون فى التجارة الإسلامية فى المحيط الهندى، وفى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، عرف أهل عمان بمهارتهم فى بناء السفن وبلغوا ساحل زنجبار لجلب الأخشاب اللازمة لبناء السفن، كما جلبوا ثمار جوز الهند، وسرعان ما أخذ العمانيون يستقرون فى شرق القارة الأفريقية وينظمون شئونها .

وقد سيطر العرب على براوة وبنت ولامو ومالندى كاليفى، وممبسة وفمبا وبمبا وزنجبار ومافيا وكلوه وموزمبيق وسفالة، وقد انشىء اغلب هذه المدن على جرز ساحلية يبعد بعضها عن الساحل مثل زنجبار، ويقرب بعضها الآخر منه مثل كلوه وممبسة، وهذه المدن عبارة عن موانىء ساحلية، محصنة تحصيناً قوياً، ولكل منها مسجدها الجامع .

وفى عام ١٣٣٥م، استطاعت إمارة بنت Punt أن تستولى على الساحل الشرقى من مالندى إلى كلوه عدا زنجبار ، ثم تبعتها إمارة ممبسا ومقديشيو وزنزبار ، ولكن زعامة كلوه كانت أكثر هذه الزعامات بقاءً، وأكثر هذه الإمارات قوة؛ لأنها كانت تسيطر على منطقة سفالة، وتقوم بالتجارة فى الذهب الذى يستخرج من سفالة منذ القرن الثانى عشر الميلادى. وقد استطاعت كلوه ان تحقق هذه الوحدة المنشودة إلى حد ما؛ حتى جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، فوجدوا أن هذه الإمارات لا تزال تسيطر على الجزء الجنوبى من ساحل كلوه، ولما القى فاسكو دى جاما مراسيه فى موزمبيق، وجد حاكم هذه المدينة الذى عين من قبل سلطان كلوه، يجمع المكوس باسم هذا السلطان .

وقد تحدث المسعودى عن ساحل شرق أفريقيا ، حيث اقام على ساحل شرق افريقيا زمنا وحاول أن يتخطى الساحل إلى الداخل، ولكنه لم يصل إلى ابعاد كبيرة. وعلى الرغم من ان القرن العاشر الميلادى قد شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية على الساحل الشرقى، إلا أن الزنوج- كما أدرك المسعودى- ليسوا أمة واحدة، وإنما هم قبائل شتى وشعوب مختلفة؛ وذلك نظرا لاستقلال هذه الإمارات العربية الإسلامية، بعضها عن البعض الآخر ، وقد وصل إلى أقاصى بلاد الزنج الجنوبية، وهى التى تقصدها المراكب العمانية والبراقية؛ حيث كان قد وصل إلى شرق أفريقيا، بصحبة بحارة من عمان وسيراف، ومن مدينة سنجارة صحار سنجار قضية بلاد عمان فى ذلك الوقت ، حيث بلاد الزنج هى غاية مقاصد السفن العربية، وهى نهاية أسافل بحر الزنج. وقد حدد المسعودى بلاد سفالة بأنها أقاصى بحر الزنج، وقال عنها (سفالة) هى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب، خصبة حارة، ولم يذهب من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب خلال العصر الإسلامى، وراء هذه المنطقة. وفى الحقيقة ربما لم يحد العرب بعد سفالة جنوباً ما يسافرون من أجله؛ فلم يكن لهم أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإبحار أكثر من سفالة جنوبا؛ إذ كانت سفالة تمدهم بكل ما هم فى حاجة اليه، وبكل ما تستطيع سفنهم الكبيرة أن تحمله من ذهب وعاج، ومنتجات ذلك الإقليم التى كانت تنوء بحملها السفن، إضافة إلى دورهم فى نشر الدعوة الإسلامية .

فهناك فى لامو جالية سنية كبيرة، ولها مسجد جامع تقام فيه الدراسات الإسلامية الدينية والعربية على نحو ما يحدث فى الجامع الأزهر فى القاهرة ، كما أنه تعيش فى المدينة نفسها جماعة شيعية، إلا أن الخلاف بين المذاهب الدينية لم ير أى نوع من الصراع، كما حدث فى قلب الدولة الإسلامية العربية، أو فى شمال افريقيا، وإنما يربط بين هذه الجماعات روح الوئام والمحبة؛ لأنهم جميعا يهدفون إلى نشر الدعوة الإسلامية، ورفع لواء الإسلام فوق هذه الأراضى الإسلامية، بعد أن كونوا هذه المدن الإسلامية، التى وصل عددها إلى اكثر من أربعين مدينة عربية إسلامية، شيدت بالحجارة والمبانى الفاخرة ، وكذلك العمل من اجل تحقيق الازدهار لهذه المدن بالعمل التجارى الاقتصادى .

وهكذا ظهرت تلك المدن ككيانات سياسية عربية إسلامية، وشهد الساحل الشرقى الجنوبى قيام كثير من هذه الإمارات العربية الإسلامية، وكثر عدد المهاجرين العرب إلى الساحل، ووضح الاستقرار الدائم وظهور هذه الدول الجنوبية شبه المستقلة .

وقد تحدث المسعودى عن أول دولة للزنج الجلعى، وهى غير سلطنة الزنج التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى، واتخذت مدينة كلوه عاصمة لها، وأن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يجور عليهم (قد يقصد بذلك الإقليم بعض سكان الداخل الوثنيين؛ حيث حاول المسعودى أن يتخطى الساحل إلى الداخل، ولكنه لم يصل إلى أبعاد كبيرة) ويقول عنه إنه يملك ملوك سائر الزنج، وله ثلاثمائة فارس، ودوابهم البقر، وليس فى أرضهم خيل ولا إبل، ولا يعرفونها، وأن تلك المملكة غنية بالذهب، وأن الزنوج بنوا عاصمتهم فى اقصى الجنوب؛ لتكون على مقربة من مناطق استخراجه، وأنهم يصدرونه بكميات وفيرة، ولعل المسعودى يكون بذلك أول من كتب عن مناجم الذهب، التى تشتهر بها المناطق الداخلية (رودسيا الجنوبية) .

وقد أشار المسعودى بمهارة الزنوج فى صناعة المعادن وفى التجارة والزراعة وفى صيد الأفيال، وأنهم يحرصون على الحديدأكثر من حرصهم على الذهب؛ حيث يتخذون حليهم من الحديد، أما الذهب فيصنعون منه سلاسل دوابهم، ولعله ذكره لكثرة إنتاجه فى بلادهم .

وكما سبق القول، فإن المسعودى تحدث عن جزيرة (قنبلو)، فذكر أنها جزيرة حارة، فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج، وكلهم فى حكم أمير مسلم، إلا أن لغته زنجية،

وذكر أن الإسلام ينتشر بينهم بسرعة، وتتردد على جزيرتهم المراكب العمانية، وأشار إلى أنه وصل إلى قنبلو فى رحلته من مدينة سنجار صحار ، وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين فى قنبلو بقرن ونصف قرن قبل رحلته ، أى إن الإسلام قد وصل إلى تلك الأنحاء فى القرن السابع الميلادى، أو مع نهاية القرن الثامن الميلادى؛ حيث كانت رحلة المسعودى إلى شرق افريقيا ما بين أعوام (٩١٦ - ٩٢٦م) .

وقد قال عن جزيرة قنبلو إن المسلمين قد غلبوا على المدينة، وأنهم كانوا يشكلون الأغلبية العددية، وذلك مع بداية تأسيس الدولة العباسية ، ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لا يكاد يوافق تأسيس أية إمارة عربية إسلامية، أو هجرة عربية كبيرة إلى شرق أفريقيا ، ومن الممكن أن يكون نزول العرب إلى جزيرة قنبلو، كان بسبب هجرة الزيديين إلى تلك المنطقة ، ولقد اشار بعض الجغرافين الأوروبيين، ومنهم الفرنسى المستشرق رينواد Reinaud إلى ان المقصود بجزيرة قنبلو ربما يكون الأقرب إليها مدغشقر وملاجاش؛ حيث تكون هى الجزيرة التى أشار إليها المسعودى ، وأن كان البعض يحددها بكبرى جزر القمر، وهناك من يرى أن جزيرة قنبلو هى جزيرة زنجبار ، كما يستدل فى تاريخ مدينة كلوه على أن العرب وصلوا إلى هذه الجزيرة، قبل زمن طويل من رحلة المسعودى، وربما قد تكون جزيرة قنبلو هى إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار .

ولقد كان زمن زيارة المسعودى إلى شواطىء شرق أفريقيا ، عهداً لتأسيس عدة مدن وإمارات عربية إسلامية، صارت فيما بعد أهم مراكز هذه الشواطىء، وأرفعها شأنا .

وقد اشار إلى مدن شرق أفريقيا، على الرغم من أنه لم يورد معلومات وافية عن هذه المدن، وقد يكون الإدريسى فى كتابه «نزهة المشتاق» أول المصادر، التى تحدثت عن مدن الساحل وجزره، ومن ذلك كلوه التى ذكر عنها أن لها تجارة مهمة مع سفالة ومالندى، التى وصفها بالازدهار، ولا شك أن الفترة التى وضع الإدريسى كتابه «نزهة المشتاق»، كانت فيها تجارة العرب مع شرق أفريقيا مزدهرة ازدهاراً كبيراً ، على أن الإدريسى لم يعن بتجارة العرب فى الذهب والعاج وغيره من منتجات ذلك الإقليم ؛ لأن هذه التجارة كانت معروفة فى العالم العربى التجارى ، إلا أنه ركز على تجارة الحديد، وهو المادة التى كانت تخرج من مدينة مالندى ، ويحدثنا الإدريسى عن أن الزنوج كانوا يمتلكون فيها مناجم الحديد ويستخرجونه ويتاجرون فيه، ويربحون من تجارته هذه أرباحًا كبيرة ، كذلك تحدث

عن ممبسا واشتغال اهلها بتجارة الحديد، أيضا مما يدل على الصلات، التى كانت قائمة بين شعوب الداخل. ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم، خاصة من الهنود؛ اذ كانت السيوف تصنع فى الهند من الحديد المتحصل عليه من شرق أفريقيا ، وقد أكد الإدريسى عن العلاقات التى كانت قائمة بين العرب وساحل شرق أفريقيا، وإن كان قد اقتصر فى حديثه عن العلاقة التجارية، دون أن يعنى بدراسة الإمارات أو الممالك الإسلامية، التى أنشأها العرب على ساحل شرق أفريقيا وفى ذلك يقول الإدريسى عن مدن شرق القارة الأفريقية أن جميع بلاد الزنوج بضائعهم من الحديد وجلود النمور الزنجية، وينقلون أمتعتهم على رؤوسهم، وعلى ظهورهم إلى مدينتى مالندى ، ممبسا فيبيعون هناك ويشترون .

كذلك أشار ابن الوردى إلى بلاد الزنوج، وتلك الإمارات العربية الإسلامية فى القرن الثانى عشر الميلادى، فى كتابه «فريدة العجائب وفريدة الغرائب» ، فتحدث عن شرق أفريقيا من رأس جردفون إلى موزمبيق ، فذكر أن جميع سكان الساحل من المسلمين، وأن فيهم القاضى والإمام .

كذلك أشار ياقوت الحموى فى معجمه المعروف «بمعجم البلدان» ، وتحدث كثيراً عن مدن شرق أفريقيا كمقديشيو والجب وكلوه، وأشار إلى الشعب السواحلى ، وقد تحدث عن مقديشيو، وقال عنها إنها مدينة فى أول بلاد الزنج، وأهلها كلهم غرباء ليسوا سودان، ولا ملك لهم، وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح حالهم، ومجلس شورى يتكون من المشايخ وعليه القوم، وإذا قصدهم التاجر، فله أن ينزل على واحد من أعيان المدينة، أو علية القوم ويستجير به، فيقوم بأمره، ومن تلك البلاد يجلب الصندل والأبنوس والعاج، وهذه المواد التجارية غير اكثر المواد التى تستورد فى تلك المدن ، ،كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الجب وكلوه وسفالة .

وتحدث عن كلوه فقال إنها موضع بأرض الزنج ، وعلى هذا فإنه يمكن القول أن العرب عرفوا مناطق فى داخلية أفريقيا، لم يصل اليها الأوروبيون إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

وتحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوه، ويفهم من حديثه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ومصر ، كما أنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج، ولهم شرطات فى وجوههم، وبينها وبين سفالة مسيرة نصف شهر، وكلوه

مدينة من أحسن المدن، وأتقنها عمارة، وبيوتها من الخشب، والأمطار بها كثيرة، وأهلها أهل جهاد؛ لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب، كما تحدث عن سلطانها «أبو المظفر حسن» والذى كان يكنى بأبى المواهب؛ لكثرة مواهبه وكرمه، وقد ذكر عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار ، يغير عليهم ، ويأخذ منهم الغنائم؛ حيث تخرج منها ويصرفها فى الأوجه المعنية فى كتاب الله، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها كما تحدث ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوه إلى ممبسا اثر معاهدة تمت بين البيتين الحاكمين فى كل من كلوه وممبسا ، وكما أنه تحدث عن كلوه بطريقة لم يسبقه إليها احد من قبله، فإنه لم يتوسع فى الحديث عن علاقات سلطنة كلوه من الناحيتين السياسية والتجارية، بغيرها من المناطق؛ خاصة وأنها كانت فى زمنه من أهم المراكز التجارية والحضارية الإسلامية ، بل المركز الأول فى شرق القارة الأفريقية، وكانت حركة الاستيطان العربى والإسلامى بالغة أقصى حد لها من القوة والاتساع .

والمطلع على حوليات كلوه، يدرك أن صراعاً طويلاً نشب فى هذه المدينة بين الطامعين فى السلطة، وأن المدينة لم تعرف الاستقرار، ولم يطل بها عهد الشيرازيين، بل انتقل الحكم بعد فترة ليست بطويلة إلى أيدى المتمندلين، فإلى أبى المذهب، ثم منه إلى أبى المواهب، واستولى الوزراء فى فترات متقطعة على السلطة، وأحياناً حكموا البلاد عن طريق ما يسمى بحكومة الصبابين؛ حيث كان يوضع فى السلطنة صبى من أبناء السلطان، ثم يحكمون السلطنة عن طريقه، وتسبب عن ذلك اضطراب متصل .

على أن أهم أسباب الاضطراب فى هذه الدولة، هى أنها شريط مستطيل على البحر ، وأن كل مدينة بها كانت تعتبر نفسها سلطنة أو دولة قائمة بذاتها، مرتبطة بالبحر، وبما خلف البحر من عالم فسيح، وكذلك المحاولات لمد النفوذ إلى الداخل بمقدار ما تستطيع أن تحققه الدعوة الإسلامية أو وسائل الاتصال التجارى ، ولعل ذلك كان مصدره الاهتمام بالتجارة اكثر من الاهتمام بالسياسة وتكوين الدولة ، وإن كانت الدعوة للاسلام تأخذ الجهد الأكبر من نشاط الدعاة والتجار ، وقد يكون اختلاف العناصر التى تكون منها خليط السكان فى هذه المناطق من الأسباب القوية، التى لم توحد صفوفهم فى دولة ساحلية واحدة ، حيث كان منهم العرب والفرس، وإن كان الفرس لا يشكلون إلا فئة قليلة، سرعان

ما تمت إذابتها فى خضم الحياة العربية الإسلامية العامة ، إضافة إلى بعض الهنود وجماعات من الأفارقة، كانوا أصلاً يعيشون فى هذه المناطق، أو الذين وفدوا اليها من الداخل، واعتنقوا الإسلام، واتخذوه عقيدة ومنهجًا لحياتهم، وتعاونوا مع النظام الإسلامى الجديد.

ولقد جاءت إلى كلوه هجرات عربية كثيفة، على إثر اجتياح المغول لدار الإسلام فى العراق، ولحق هؤلاء المهاجرون بإخوانهم، الذين سبقوهم إلى تلك المدينة ، ومن هنا جاء المهاجرون الجدد بدماء دافعة، ظهرت آثارهم فى عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الباهرة، التى فتنت ابن بطوطة، حين جاء الإقليم، واستطاعت كلوه بعد أن تنوعت مصادر ثروتها، أن تصل إلى درجة عالية من الازدهار، تقرب من الخيال؛ حيث الغنى والترف والرفاهية .

وقد وصف البرتغاليون فى كتابتهم كلوه، فقالوا عنها إنها مدينة إسلامية عظيمة ، بيوتها مبنية من الحجر والجص، وشوارعها نظيفة، وأبواب دورها من الخشب، المنحوت نحتاً بديعا، وتحيط بها البساتين والجنان، ويكثر بها الذهب، أما اهلها فبعضهم بيض الوجوه، وبعضهم سود الوجوه ، يرتدون الملابس الحريرية والقطنية، ويتحلى نساؤهم بالذهب والفضة، ويضعن اللآلئ فوق آذانهن .

ومما هو جدير بالذكر أن كلوه قد ظهرت على مسرح الأحداث السياسية، إثر هجرة كبيرة، قام بها عدد من أهل شيراز، المطلة على الخليج العربى؛ حيث كانت تلك الهجرة من الأسباب المباشرة لظهور كلوه وإمارات إسلامية جديدة ، وقد كانت كلوه فى القرن العاشر الميلادى- وعلى وجه التحديد فى عام ٩٧٥م- لا تزال صغيرة؛ حيث قام المهاجرون الشيرازيون الشيعة، بتأسيس بعض المبانى القليلة، ثم ازداد اتساعها، ولقد كان استقرار ذلك السلطان فى تلك المدينة السبب المباشر لظهور إمارة كلوه الشهيرة؛ حيث كان ظهورها رهناً بهجرته، وقد نمت كلوه فى عهد الشيرازيين هؤلاء نمواً كبيراً، وتوطدت صلتها بزنجبار .

وقد صك سلاطين كلوه تفودهم النحاسية فى القرن الخامس عشر الميلادى، فى دور صك النفوذ، وذلك حتى يمكن تداولها فى أى مكان من أفريقيا على الساحل الجنوبى ، وكانت كلوه قد امتد نفوذها إلى الأكثر بعد فى الداخل، بحيث انها كانت تعيش، كما كانت من قبل على تجارة رودسيا، وربما كاتنجا فى إقليم الكونغو أيضاً؛ حيث تحكموا فى ميناء سفالة، وفرض الضرائب على السفن المارة وعلى حمولتها، وفى كل اتجاه .

وقد فقدت مدينة كلوه أهميتها الكبرى كأكبر سلطنة، بعد أن تحولت تجارة الذهب إلى طريق رأس الرجاء الصالح؛ حيث أخذت طريقها جنوبًا ثم غرباً إلى أوروبا، وذلك بعد

سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى ، وبعد أن فقدت تلك الأهمية، فإن العرب فضلوا الانتقال إلى الشمال منها؛ لكى يندمجوا مع البانتو الساحليين .

ويبدو أن الحياة على الساحل خلقت فكرة، لم توجد عند أولئك الذين هاجروا إلى اماكن داخل القارة، فالحياة على الساحل توحى بالارتحال، لا بالاستقرار؛ فقد كان المهاجرون يتجهون للبحر بوجوههم، ويولون ظهورهم للقارة (آراء غريبة حيث رحل العرب والمسلمون إلى حوض الكونغو واقليم كانتنجا ، ثم إلى الساحل الغربى للقارة؛ حيث كانوا الأدلاء الذين قادوا رواد حركة الكشوف الجغرافية من الأوروبيين) .

ومن هنا كان اندماج المهاجرين بالسكان الأصليين قليلاً من أين جاء الشعب السواحيلى كتاباتكم من تحاربون فى كتاباتكم كل ما هو عربى وإسلامى (آراء ترمنجهام فى كتابه الإسلام فى شرق أفريقيا ترجمة عاطف النواوى وكتابه الإسلام فى الحبشة .

ويعتقد أن سلطنة كلوه هذه التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى، قد استطاعت أن تبسط سيطرتها على تجارة الذهب خاصة، وكان هذا الذهب ينقل إليها من المنطقة المعروفة حاليا برودسيا، وليس سفالة كما يذكر فى بعض الأقوال، وقد يكون الذهب، الذى وصل إليها من سفالة وروديسيا فى وقت واحد ما سبباً لها هذا الثراء الواسع ، ومما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة كلوه على تجارة الذهب قد كانت فى نهاية القرن الثانى عشر، وهو الوقت الذى كانت تدور فيه الحروب الصليبية على الأراضى المقدسة فى الشام .

بل إن هناك أقوالاً تذكر أن نفوذ مصر المملوكية البرجية، قد وصل إلى بلاد الصومال وشمال كينيا، واستمر ذلك حتى دخول القوات البرتغالية إلى المحيط الهندى فى القرن السادس عشر ، فعملت على اقتلاع جذور النفوذ العربى الإسلامى من الساحل .

ونقول إنه على الرغم من أن سلطنة كلوه قد يعود تأسيسها إلى فرس شيراز، فى أواخر القرن العاشر الميلادى، واستمرت حتى قدوم البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، إلا أن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن، هو: إلى أى مدى أثر العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى هذه السلطنة، التى اعتبرت أول سلطنة إسلامية، قامت فى المنطقة، وأطلق عليها اسم دولة الزنج. حقيقة أننا لا يمكن أن ننكر ما تركه فرس شيراز من تأثير كبير فى الأدب السواحلى والفنون والعمارة، وطريقة المأكل والملبس، ومظاهر الحضارة المختلفة ، ولكن هذه التأثيرات لم تبلغ القدر الذى بلغته السمات والتأثيرات العربية فى ساحل شرق أفريقيا ، وهكذا لم تلبث تلك السمات الفارسية أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية على الساحل .

وقد عثر فى كلوه على نقود معدنية نحاسية صينية، يرجع تاريخها إلى عام ٧١٣م، مما يدل على قدرتها التجارية ووصول السفن الصينية، تحمل بضائع الصين ومنتجاتها إليها، وحصولها على منتجات كلوه. وقد توسعت كلوه وضمت إليها عديد من المدن والإمارات ، وكونت أول دولة سواحيلية عظيمة، عرفت بدولة الزنج ، وقد استمر السواحليون يعترفون بالسيادة العربية حتى قدوم البرتغاليين، الذين استغلوا فرصة التفكك فى هذه الإمارات، ومصارعة بعضها البعض الآخر؛ لتوطيد سيطرتهم عليها، إذ كان هناك نزاع دائم بين الحكومة المركزية فى كلوه، وبين حكام المدن والموانىء، الذين حاولوا دائماً الاستقلال بمدنهم، وإنشاء إمارات صغيرة على طول الساحل ، على أن هذه القلائل التى سادت دولة الزنج، لم تمنع الدولة من أن تحقق ازدهاراً حضارياً عربياً إسلامياً فى جميع ربوعها، إضافة إلى الازدهار المادى، الذى كانت تعيش فيه كلوه ، وقد بلغ من ثراء تلك السلطنة؛ لدرجة أن سلطانها كان يخجل فى منح رجال الدين الإسلامى العطاء من الذهب، وذلك لكثرة وجوده فى البلاد. ولقد انتشرت الثقافة والحضارة العربية فى كلوه، ووفد إليها العلماء والفقهاء ورجال الدين والتجار من كل صوب وحدب، بعد أن وسع سلاطينهم بلادهم وصدورهم؛ لإثراء الحركة العلمية الثقافية ، حيث كانت تعقد دروس العلم والدين فى المدارس، التى ظهرت فى كلوه، وحيث وفد إليها الطلاب من المدن والموانىء المجاورة؛ حيث كانت تشكل الحكومة المركزية، التى تفرض سيطرتها على أغلب مدن الساحل؛ ليدرس طلابها فى الكتاتيب والمساجد والمدارس .

ومن هنا كانت كلوه مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العلمية الإسلامية ، بل بؤرة إشعاع فكرى وعلمى فى عالم ساحل شرق أفريقيا ، وكذلك كانت مكاناً تنتشر منه الثقافة والعلم والدعوة الإسلامية إلى البقاع المجاورة ، إضافة إلى أنها كانت مركزاً، تتجمع فيه المؤثرات الإسلامية الحضارية والثقافية؛ لكى تصل إلى الداخل حيث قلب القارة ، وليس بعيدا أن يكون الفقهاء ورجال الدين قد اقتفوا أثر التجار فى نشر الثقافة العربية الإسلامية إلى الداخل؛ حيث إن نفوذ كلوه، كما أشار إلى ذلك كل من رولاند أو ليفر « جون فيج » بأن نفوذها قد وصل إلى رودسيا وكاتنجا فى الداخل ، ومن هنا كان ذلك النفوذ بصحبة التطور الثقافى والحضارى ، اضافة إلى أن سلطانها «أبا المواهب»، كان كثير الغزو فى بلاد الوثنيين؛ مما يتيح فرصة اكبر لنشر الدعوة الإسلامية والدين الإسلامى، وظهور البلاد بالطابع العربى الإسلامى .

كذلك ظهرت جزيرة ممبسا بمظهر إسلامى وعربى وحضارة عربية إسلامية، والتى ذكر

عنها ابن بطوطة- عند زيارته لها- أنها جزيرة كبيرة بينها، وبين أرض الساحل مسيرة طويلة، وبها أشجار الموز والليمون والأترج، وبها فاكهة تسمى الجامون، أشبه بالزيتون، ولها نوى كنواة إلا أنها شديدة الحلاوة .

كما أن ممبسا كانت من المدن، التى تم تعميرها على أيدى العناصر العربية السنية، والذين استخدموها كميناء تجارى، وقد امتد نفوذ سلطنة كلوه إلى ممبسا، بعد ضمها إليها إثر معاهدة تمت بين الأسرة الحاكمة فى كلوه، والأسرة الحاكمة فى ممبسا، وقد تحدث ابن بطوطة عن أحوالها وعادات أهلها وتقاليدهم وثقافتهم، وإنتاجهم الزراعى وعن نشاطهم التجارى .

ويعد تاريخ مدينة بانا أو بات من أغنى ما حفظته الروايات المحلية؛ حيث إن مدينة بات فى الأصل تأسست فى عهد فترة حكم عبد الملك بن مروان الذى شهد (٦٥ - ٨٦هـ) عهدة تأسيس العرب لعدة مدن على الساحل الشرقى الأفريقى، كماليندة وزنجبار وممبسا وكلوه وبات ، وعندما حلت الدولة العباسية محل الدولة الأموية فإن الخليفة هارون الرشيد اعتمد على وجود رعية عربية إسلامية فى مدن شرق أفريقيا، بثت نفوذها فى عهد الدولة الأموية، وقد كان ذلك مشجعاً لتدعيم الوضع العربى الإسلامى العباسى فى ممتلكات شرق افريقيا، ومن ثم عملت الخلافة العباسية على تشجيع كثير من العناصر؛ وخاصة من الفرس على الهجرة والإقامة فى تلك المراكز الحضارية الإسلامية، التى تم ظهورها على الشاطىء الأفريقى .

وكانت أسرة آل نبهان، وهى الأسرة الحاكمة فى عمان، قد قاموا بمغادرة عمان، فى القرن السادس الهجرى ، عندما قام النبهانيون بالهجرة إلى جزيرة بات؛ حيث كان وصولهم أيضا قد سبقته إليها هجرات عربية فارسية؛ حيث كانت الهجرات الأولى من هذه العناصر قد اقامت بالجزيرة ، وقد استقبل العرب الذين كانوا يقيمون بالجزيرة، وكان معظمهم من إقليم عمان ، استقبلوا الأمير النبهانى استقبالاً طيباً ، وتزوج الأمير النبهانى ابنة حاكم الجزيرة، وتولى بذلك الحكم بعد أن تنازل له الحاكم السابق عن حكم بات؛ نظراً لكبر سنه، ومن ثم يبدأ حكم آل نبهان والأسرة النبهانية لحكم جزيرة بات .

ولقد كانت الهجرة النبهانية إلى بات قد تمت عام ٦٠١هـ، ومن هنا.. فإن ظهور الحكم العربى الإسلامى العمانى النبهانى فى بات قد يكون بالتقريب حوالى عام ٦٠٥هـ

وهكذا لجأت الأسرة النبهانية إلى سواحل شرق أفريقيا لكى تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ شرق أفريقيا حيث دخلت الأسرة النبهانية فى صراع أسرى حول السلطنة، إلا انها استطاعت أن تحقق انتعاشا كبيرا فى الساحل الشرق لأفريقيا، وأصبحت جزيرة بات مركز السلطة النبهانية التى شملت- إلى جزيرة بات- عدة موانىء ومدن مهمة على الساحل الأفريقى، ومن هنا كان ظهور بات بهذه الصورة الفعالة والقوية والمؤثرة فى شرق افريقيا يكاد يشابه من عدة وجوده ظهور كلوه، بهذا المظهر؛ حيث كانت تسيطر على الساحل جنوباً حتى سفالة .

وقد وصلت بات فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى إلى درجة عالية من التقدم والتطور والرقى والتطور العسكرى؛ بحيث ضمت إليها بعض المدن مثل قسمايو ، براوة، مقديشيو ، كما أنها فى بعض الفترات التاريخية استطاعت أن تمد نفوذها جنوبًا؛ حيث شهد عهد السلطان محمد شانجا امتداد نفوذ بات فى عهده وعهد أبنائه إلى ماليندى، وكلوه وممبسا، وبهذا استطاعت هذه الأسرة العربية العمانية أن تخضع معظم الساحل الشرقى تحت لوائها، بعد أن تلقب سلاطينها بلقب يوانا فومادى، وهو لقب سواحيلى تقليدى، قد يعنى السلطان فيما يبدو، أو الكبير أو العظيم أو السيد.

وقد نشطت فى ظل حكم الأسرة النبهانية الحركة الاقتصادية والتجارية فى شرق أفريقيا، وتوافد على الساحل الذى بسطت عليه نفوذها التجار العرب والهنود والفارسيون، كما أدخلت الزراعة فى بقاع كثيرة، وترتب على ذلك ازدياد العلاقات بينهم وبين موانئ الجزيرة العربية والخليج والمحيط الهندى، وقد تعرضت جزيرة باتا كما تعرضت بقية الموانئ والإمارات العربية الإسلامية فى شرق أفريقيا لخطر البرتغاليين، وكان من الطبيعى أنه تساند أمارة بات ، تلك الحركات التحررية التى قادتها الإمامه فى دولة اليعاربة فى عمان؛ لتخليص شرق أفريقيا من أيدى البرتغاليين (انظر دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ، للباحثة عائشة على اليسار، رسالة ما جيستير ، كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٧٠م) .

وقد بعث السلطان محمد الرابع ، سلطان بات فى عام ١٥٧٤م إلى شيوخ حضرموت يستنجد بهم ضد البرتغاليين ، وكذلك أرسل إلى سلاطين اليعاربة، طالباً ذلك ، حيث إنه لم يمض وقت طويل من السيطرة البرتغالية فى مناطق الخليج ، حتى بلغت أخبار هذا النجاح سكان شرق أفريقيا المسلمين، ولا سيما أهالى ممبسا، الذين سارعوا بطلب النجدة من الإمام سلطان بن سيف، وقد أرسل الإمام عدداً من السفن العمانية عام ١٦٥٥م؛ لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا، وقد دمرتها، وقتلت عددا من البرتغاليين، واستولى

المهاجمون على كل أملاك البرتغاليين، وأعادوا مسجدها القديم إلى وضعه الطبيعى وعاملوا رجال الدين بالمحبة والمودة، بعد أن أعلنوا دخولهم فى الإسلام عن رضا وطاعة .

وقد امتد نفوذ بات شمالاً أكثر منه جنوباً؛ حيث إن نفوذ كلوه كان يمتد شمالاً إلى بمبا؛ حيث إن أسرة الشيخ الفارس على بن الحسن الشيرازى، قد امتد نفوذها على ساحل شرق أفريقيا، بحيث لم يقتصر على كلوه فقط، وإنما امتدت إلى عدة موانىء وجزر أخرى، تقع إلى الجنوب من دولة الزنج، التى كانت كلوه عاصمة لها، وتمتد شمالاً إلى بمبا، وجنوباً إلى سفالة، وهكذا كانت حدود بات تقف عند بمبا جنوبا ، غير أن تلك السلطنة كان ينقصها الارتباط؛ بمعنى أنها لم تكن سلطنة أو دولة متماسكة، فضلاً عن أنها تعرضت للمنازعات التقليدية، وتحولت إلى مدن مستقلة؛ حيث خرج القسم الشمالى مقديشيو ، براوة، فسمايو عن طوعها ونفوذها ، ولكن مع كل هذا فإن باتا قد احتلت مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقى لأفريقيا، فيما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلادى .

وقد شهدت ممبسا كما شهدت كلوه وبات نهضة عربية إسلامية، حتى سقطت فى أيدى البرتغاليين، الذين اتخذوا من أساليب الإثارة والخلافات بين الحكام وإثارة العدوان وسيلة لإخضاع الساحل إليهم، ونجح البرتغاليون فى تشييد قلعة عسكرية فى ميناء ممبسا، اعتبرت من أشهر وأقوى قلاعهم، وعرفت باسم قلعة المسيح، لا تزال آثارها باقية فى ممبسا حتى الآن، تشهد حركة الاضطهاد المسيحى والتبشير المسيحى بين المسلمين، ولكن ممبسا- وقد كانت تعانى من ضغط البرتغاليين- اضطرت إلى طلب العون من عمان؛ مما شجع البرتغاليون على ازدياد حركة الاضطهاد ، ولكن العمانيين بعد أن طردوا البرتغاليين من هرمز، فإنهم عملوا على طرد البرتغاليين من شرق أفريقيا (يذكر بعد عدة صفحات)، وفى القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٣٥م استطاعت امارة بات أن تستولى على الساحل الشرقى الأفريقى من مالندى إلى كلوه عدا زنجبار ، ثم تبعتها إمارة ممبسا ومقديشيو بعد ذلك .

وقد شهدت باتا نظاماً إسلامياً شوريًا فى الحكم والنظم والإدارة، ومن ذلك نجد أن باتا فى عهد السلطان عمر الأول قد كانت باتا داراً للشورى، ومقراً للحكومة المركزية للبلاد، التى خضعت لهؤلاء السلاطين، وكان السلطان النبهانى يتخذ له عاملاً فى كل مدينة من المدن التى خضعت له ، ويشاركه مجلس شورى محلى، كما أن هذا الوالى كان عليه أن يستعين بالأعيان وكبار رجال المدينة فى إدارة البلاد .

وهكذا ظهرت سلطنة باتا النبهانية، وبرزت على هذا النحو، الذى كانت فيه كلوه تمارس ذلك الدور، واستطاعت هى الأخرى أن تخضع عدداً كبيراً من مدن الساحل الأفريقى. وعلى الرغم من توسع نفوذ كلوه ، إلا أنه لا يمكن أن ينكر أن بعض هذه السلطنات مثل- سلطنة بنى نبهان فى باتا- استطاعت أن تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، واستطاعت كلوه أن تحقق ذلك النفوذ ، غير أن هذه الجهود لم تتمخض عن إيجاد وحدة سياسية لجمع شمل هذه المدن التجارية ، وقد يكون العجز عن تحقيق هذه الوحدة العربية الإسلامية فى امارات الساحل الجنوبى - شأنها فى ذلك شأن امارات الساحل الأوسط أو اقليم إمارات الطراز الإسلامى- أن هذه الامارات ترجع إلى أن حكامها ينتمون إلى بطون عربية مختلفة ، لم تتحد فى شبه الجزيرة العربية؛ فكيف نندمج فى وحدة واحدة فى شرق أفريقيا ، فضلاً عن اختلاف المذاهب الدينية من شيعة وخوارج وسنة ومعتزلة وغيره من المذاهب، التى لم تتآلف فى قلب العالم الإسلامى ، ومن ثم فإنه لم يكن لها أن تتألف أو تتحد أو تقترب فى بلاد شرق القـارة ، ثم أنه لم تكن عبر الشريط الساحلى دولة عربية واحدة تجمعه، بحيث تستطيع أن نفرض عليه نفوذها السياسى، فى ظل الظروف السائدة فى العصور الوسطى، لاسيما وأن ذلك الساحل فى العصور الحديثة مقسم بين أربع دول، وهى: الصومال ، وكينيا ، وتنزانيا، وموزمبيق، إضافة إلى دولة ملاجاش فى مدغشقر ، مما جعل تلك الإمارات والمدن تقع لقمة سائغة فى القرن السادس عشر الميلادى فى أيدى البرتغاليين ، وهكذا كان التوجيه الجغرافى للمدن نفسها، لم يعمل عليها أن تندمج فى ظل نظام سياسى واحد.

كانت مدن هذه المجموعة من الإمارات السابق الإشارة إليها- والتى وصل عددها إلى أكثر من خمسة عشر مدينة مطلة على الساحل، غير المدن العربية الداخلية، التى وصل عددها إلى اربعين مدينة، بما فيها مدن الساحل-تستقل كل منها عن الأخرى فى ممارسة نشاطها التجارى، ورغم أنه كانت هناك ثلاث إمارات فى بعض الحقب التاريخية، استطاعت أن تفرض نوعاً من السيادة على ذلك الساحل كباتا وكلوه ، وزنجبار ، إلا أن هذه المدن تكاد تتخصص كل منها فى تجارة أو نوع معين من التجارة . فهى أشبه بالمدن الفينقية، التى تناثرت على ساحل الشام، أو ساحل شمال افريقية. ولقد كانت العدوات لا تفتأ تشتعل بين هذه المدن المختلفة مذهبيًا وجنسيًا ، مثل النزاع المعروف بين مالندة ، وممبسا، الذى استمر حتى قدوم البرتغاليين، وسارت مالندة فى ركابهم مع اختلاف الدين رغبة فى الانتقام من

ممبسا ، وهكذا كانت هذه المدن والإمارات والسلطنات ذات طابع اقتصادى، مع الأخذ بالجهاد فى نشر الدعوة الإسلامية بين الزنوج فى الساحل والداخل، وتاريخها الاقتصادى، الأساس الذى تترتب عليه الأحداث التاريخية فى المنطقة، ويؤثر فى حضارتها وفى حياتها الاجتماعية، بل ويؤثر فى نشاطها الإسلامى .

كذلك إذا كانت كلوه وباتا وممبسا وقنبلو قد مارست نفوذها على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، فإن هناك مدينة أخرى، ظهرت بالمظهر الإسلامى العربى والحضارى والثقافى، من ذلك مدينة مالندى، التى خضعت للنفوذ السياسى لباتا فى بعض الفترات؛ حيث كان سلطانها يعيش فى الرفاهية والرخاء والثروة الواسعة؛ حيث كان قصر السلطان مفروشاً بالأبسطة الفاخرة ومقاعده من العاج والذهب، وقد أهداه السلطان المالندى لمبعوث فاسكودى جاما استقبالاً حافلاً فى قصر السلطان .

وممبسا يقول عنها مبعوث البرتغال إنها مدينة عظيمة، ترسو فيها السفن الكبيرة، التى تبحر إلى جزر زنجبار ، أما الجزر الصغرى مثل مافيا وبمبسا وزنجبار ، فإن أهلها يعيشون عيشة قوامها البذخ والترف ، ويرتدون الملابس الحريرية، ويخرجن النساء إلى الأسواق، وعليهن حلى من الذهب والجواهر .

وهكذا نرى مدنًا عربية أخرى، تأخذ فى الظهور على طول الساحل الشرقى لقارة الأفريقية من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة، التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم الزنج، وذلك بسبب اختلاف جموع كبيرة من العرب إلى هذه البلاد الساحلية .

وقد كانت أسرة المعمورى تحكم مدينة ممبسا، وتلتها فى حكم الجزيرة أسرة المزروعى، وقد كانت هذه الاسر جميعها خاضعة خضوعًا اسميًا لأئمة عمان ، إضافة إلى أن باتا حكمها آل نبهان، الذين ظلوا يحكمون الشطر الأكبر من الساحل الشرقى لأفريقيا حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وبذلك استطاعت الأسرة النبهانية أن توحد معظم الساحل الشرقى لأفريقية تحت لوائها، وفى عهد ازدهار سلطنة باتا نشطت الحركة التجارية فى الشرق الأفريقى؛ حيث توافد على الساحل كثيراً من العرب والهنود والفرس .

وهكذا ظهرت تلك الإمارات العربية الإسلامية الممتدة من براوة وسيوة وباتا ، لامو ، زنجبار ، مافيا ، كلوه سفالة بالمظهر العربى الإسلامى؛ حيث ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية؛ وصارت مدنًا عربية .

على أن أهم ما يلاحظ أن العرب الذين استوطنوا تلك المراكز الإسلامية- كما سبق القول- قد نقلوا معهم خلافاتهم المذهبية ومنازعاتهم الأسرية والقبيلية ، ولذلك ظهر العداء سافراً بين هذه المدن والإمارات بعضها بالبعض الآخر؛ حتى أصبح من المستحيل قيام وحدة سياسية اتحادية تجمع بينهم عن طواعية ورضا وتآلف ، إلا أن ذلك لا ينبغى كما سبق القول قيام بعض الوحدات السياسية الكبرى فى ذلك الساحل الطويل ، حيث كانت تقوم عدة وحدات سياسية، كانت تستند على التفوق أو توسع إحدى الامارات أو السلطنات على حساب غيرها، ومثال ذلك نجاح ممبسا مثلاً فى السيطرة على كثير من مدن الساحل، خلال بضع سنوات فى القرن الثانى عشر الميلادى، أو كما فعلت باتا أو بات فى سيطرتها على معظم مدن الساحل من ماليندة شمالا إلى كلوه جنوبا، فيما عدا زنجبار التى فشلت فى بسط نفوذها السياسى عليها. وكما حاولت مقديشو وبمبا وزنجبار فى أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات من ذلك النوع ، أما دولة الزنج فعلى الرغم من أن الساحل كان يتبعها، إلا أن هذه التبعية لم تتعد كونها تبعية اسمية فعلية ، وتتضح لنا صورة هذه الوحدات السياسية فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، حينما جاء البرتغاليون إلى شرق أفريقيا حيث وجدوا لسلطنة كلوه السيادة على الجزء الجنوبى من ساحل شرق أفريقيا، إذ أنه عندما وصل فاسكودى جاما إلى موزمبيق، وجد أن حاكم المدينة كان نائباً عن سلطان كلوه، وكان يجبى الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية، التى كانت ترد إلى الميناء، كما كانت هناك علاقات مصاهرة، وإن كان ذلك لم يمنع كل مدينة من هذه المدن أو إمارة عربية أن تستقل بشئونها الداخلية؛ مما حدا ببعض المؤرخين أن يشبهوا هذه المدن بدول المدن المعروفة فى التاريخ اليونانى القديم أو المدن الفينيقية .

ومع ذلك فإن دولة كلوه يرجع إليها الفضل فى أنها استطاعت أن توحد معظم المراكز الإسلامية، فى ساحل شرق أفريقيا، وبلغت ذروتها فى عهد سليمان بن على ثانى، فلم تستعص عليه من مدن الساحل، سوى مدينة مقديشيو، التى كما سبق القول كانت تحكمها أسرة ارستقراطية عربية تجارية، وقد ضمت دولة الزنج إليها كل من جزيرة بمبا وزنجبار، وإن كان هناك ما يؤكد أنها سيطرت على بمبا اكثر من زنجبار ، هذا فضلا عن صلاتها التجارية الواسعة مع جزيرة مدغشقر وجزر القمر، وبواسطة دولة الزنج دخل الإسلام هذه الجزر فأصبح دين الغالبية فى جزر القمر ، كما اعتنقه عديد من القبائل فى جزيرة مدغشقر، ونجح العرب فى تأسيس مملكة عربية فى شمال جزيرة مدغشقر، وكذلك حكمت إحدى جزر القمر أسرة عربية

وهكذا شهدت جزر القمر أحداثًا إسلامية كثيرة؛ حيث امتزجت الجاليات العربية بالسكان الأصليين، وقد نشأ من هذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخالص إلى الاسود النبتو والملجاش، ويعرفون بالجنس القمرى، ويتردد التجار العرب على جزيرة نجازنجا والعرب فى انجوان، يعتزون ويتفاخرون بأصولهم العربية، وقد امتزج السود بالدم العربى، ونشأ عن هذا الاختلاط ما يعرف بالجنس الماهورى، ويسير القمريون وفق الشريعة الإسلامية، ويتكلمون اللغة السواحيلية، التى تمتزج ببعض عبارات ملجاشية، وهم مسلمون سنيون شديدو التمسك بدينهم، ويبنون دورهم من الحجر والجص، ويشتغل العرب منهم بالزراعة، ويشتغل بعضهم بصناعة الحصر والحبال والسيوف والحراب واستخراج السكر، ويتكلم بعضهم العربية، ويلتحق اطفالهم بالمدارس الأولية، التى يتعلمون فيها القرآن الكريم واللغة العربية .

وقد استوطن العرب اقليم سفالة جنوبى موزمبيق بين أعوام (٥١٠ - ١٢٢٠م)، وقد قيل إن سكان جزيرة مدغشقر جاءوا من أفريقيا وبلاد العرب، وقد اختلط بعض ملاحى العرب الذين كانوا يترددون على الساحل الأفريقى الشرقى، منذ زمن بعيد بسكان هـذه البلاد ، كما اختلطوا بجنس الملايو، الذين لا يستبعد أن تكون الرياح قد طردتهم، وألقت بهم السفن التى كانت تقلهم على سواحل هذه الجزيرة، وتدعى قبيلة انتيمورونا أنهم عرب، جاءوا إلى هذه الجزيرة من مكة المكرمة، وأن تحولهم إلى الإسلام لابد أن يكون على أيدى دعاة عرب، كما يقول ارنولد توماس فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

* * *